# مرض العشق بين الطب والأدب

بقلم الدكتور
عبد الناصر كعدان

وصف الأطباء العرب المسلمين القدامى حالة العشق على أنها حالة مرضية كغيرها من الأمراض العصبية أو النفسي؛ كالصرع والصداع والسوداء، لها أسبابها المرضية وعلاماتها وأعراضها وعلاجها. فأفاضوا في شرح هذه الحالة موضحين أن لهذا المرض علاجات مختلفة تطبق حسب حالة المريض وحسب درجة ثقافته، بالإضافة لطبيعة الظروف المحيطة به. الهدف من هذا البحث هو تسليط الضوء على هذا المرض حسب ما ذكره الأطباء العرب المسلمون الأوائل.

## لمحة تاريخية عن مرض العشق :

اعتبر العشق على أنه شكل مفرط من أشكال المحبة. وفي الوقت الذي ينظر فيه إلى الحب على أنه أسمى عاطفة يتحلى بها الإنسان، فقد اعتبر العشق أنه عبارة عن حالة مرضية تحدث نتيجة للمغالاة الشديدة في الحب، مما ينعكس ذلك بآثار سلبية على شخصية العاشق تتظاهر باضطرابات جسمية، فضلاً على الاضطرابات السلوكية والتي كثيراً ما تدفع الشخص المصاب لأن يرتكب تصرفات غير عقلانية.

لقد عالج الأدباء العرب ومنهم الشعراء هذا الموضوع في شعرهم الغزلي بشكل خاص، واعتبره الكثير منهم بأنه المرض الذي لا يرجى شفاؤه. من ذلك مثلا قول ابن الفارض:

وضع الآسي بصدري كفه
قال مالي حيلة في ذا الهوي

وقوله أيضاً:

ولقد أقول لمن تحرش بالهوى
عرضت نفسك للبلى فاستهدف

أنت القتيل بأي من أحببته
فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

ومن ذلك أيضاً ما تذكره كتب الأدب عن محاورة جرت بين مصاب بالعشق ينشد علاجاً لعشقه وأحد الشعراء (الأصمعي) يسديه النصيحة:

أيا معشر العشاق بالله خبروا
إذا حل عشق بالفتى ما يصنع؟

يداري هواه ثم يكتم سره
ويخشع في كل الأمور ويخضع

وكيف يداري والهوى قاتل الفتى
وفي كل يوم قلبه يتقطع

فإن لم يجد صبرا لكتمان سره
فليس له سوى الموت ينفع

سمعنا أطعنا ثم متنا فبلغوا
سلامي لمن كان للوصل يمنع

ومن ذلك قولهم في مجنون ليلى:

رأى المجنون في البيداء كلباً
فَجرَّ له من الإحسان ذيلا

فلاموه على ما كان منهُ
وقالوا لِمَ أنلتَ الكلب نيلا

فقال لهم دعوني إن عيني
رأته مرّةً في حيّ ليلى

في حين أن الأطباء المسلمين القدامى، وعلى نحو مخالف للشعراء، قد نظروا إلى هذا المرض على أنه حالة مرضية كغيره من الأمراض العصبية أو النفسية كالصرع والصداع والسوداء له أسبابه المرضية وعلاماته وأعراضه وعلاجه. فأفاضوا في شرحه موضحين أن لهذا المرض علاجات مختلفة تطبق حسب حالة المريض وحسب درجة ثقافته، بالإضافة لطبيعة الظروف المحيطة به.

ولعل أول من تكلم في مرض العشق من الأطباء هو الطبيب اليوناني أبقراط Hypocritesوالملقب بأبي الطب. حيث قال واصفاً إياه: "العشق طمع يتولد في القلب وتجتمع فيه مواد من الحس. فكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج وشدة القلق وكثرة السهر. وعند ذلك يكون احتراق الدم واستحالته إلى السوداء، ومن طغيان السوداء وفساد الفكر يكون الفدامة ونقصان العقل، ورجاء ما لم يكن وتمني ما لم يتم حتى يؤدي ذلك إلى الجنون. فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه، وربما مات غما. وربما وصل إلى معشوقه فيموت فرحا أو أسفا. وأنت ترى العاشق إذا سمع بذكر من يحب كيف يهرب دمه ويستحيل لونه. وزوال ذلك عمن هذه حالته بلطف من رب العالمين، لا بتدبير الآدميين".

وقد وصف جالينوس **Galen** هذا المرض بقوله: "العشق استحسان ينضاف إليه طمع،

والعشق من قِبَل النفس، وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد. والعاشق يمتنع عن الطعام والشراب لاشتغال الكبد، وعن النوم لاشتغال الدماغ بالتخيل وذكر المعشوق والتفكير فيه، فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت فيه. فمتى لم تشتغل فيه وقت الفراق لم يكن عاشقاً".

## أسباب مرض العشق:

يقول ابن سينا في ذكر أسباب هذا المرض: "هذا مرض وسواسي شبيه بالمالينخوليا **Melancholy**، يكون الإنسان قد جلبه إلى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمايل التي له، سواء أعانته على ذلك شهوته أم لم تعنه".

وقد أضاف بعضهم إلى ذلك بأن هذا المرض يعتري العزاب والبطالين من أهل الرعاع. ويتحدث ابن هبل البغدادي عن آلية حدوث هذا المرض فيقول: "العشق مرض يعرض من إدامة الفكر في استحسان بعض الصور الحاصلة في الخيال وإدامة النظر إليها وتحريك النفس شوقا إلى استحضار ما هي مثاله، ويساعد على ذلك الحركات الشهوانية فيعرض من ذلك شيء من الجفاف واليبس المؤدي إلى المالينخوليا". من حديث البغدادي يمكن لنا أن نفسر لماذا أتى مرض العشق بعد مرض المالينخوليا في المؤلفات الطبية العربية القديمة.

## الأعراض والعلامات:

أجمل سبط الماريني في مخطوطته الطبية المسماة الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية أعراض وعلامات مرض العشق قائلا: "وعلامته غؤورُ العينين وجفافهما إلا عند البكاء، وغلظ الجفن من كثرة السهر والأبخرة المتصاعدة إليه. ويعرف معشوقه بوضع اليد على نبضه وذكر أسماء وصفات، فإذا اختلف النبض عرف أنه هو".

لقد أجمع أكثر الأطباء العرب المسلمون الذين تحدثوا عن مرض العشق أن اضطراب النبض هو من العلامات الهامة لتشخيص مرض العشق بل وحتى معرفة هوية المعشوق. ومرد ذلك يعود إلى حكاية تروى عن ابن سينا والذي ألف رسالة في العشق كتبها لابن عبد الله الفقيه.

وملخص هذه الحكاية، أنه وقع أحد الفتيان من أبناء أمراء فارس في مرض عضال، وقد عجز الأطباء في ذلك الوقت عن معرفة هذا المرض وبالتالي علاجه. فكان الشاب ينحل ويضعف يوما بعد يوم، وقد امتنع عن الطعام لانعدام الشهية حتى هزل ولزم الفراش. ولما عجز الأطباء عن إيجاد الدواء الشافي لمرض هذا الفتى، لجأ أهله لابن سينا يرجونه زيارة المريض والنظر في حالته بعد أن يئسوا تماما من شفائه. وفور وصول ابن سينا إلى بيت المريض سأل عن أعراض سقمه وما آل إليه حاله. ثم دخل على الفتى وفحصه بعناية، وجلس بجانب فراشه ووضع أصبعه على نبضه، ثم طلب من أحد الخدم أن يعدد جميع أحياء تلك البلد، ولما وصل الخادم إلى ذكر حي ما لاحظ ابن سينا أن نبض الفتى قد تسرع. وعندئذ طلب من الخادم أن يذكر أسماء العائلات التي كانت تقطن ذلك الحي، ولما أتى الخادم على ذكر اسم معين من تلك الأسماء

شعر بأن نبض الفتى قد تسرع أكثر. وهنا سأل ابن سينا إن كان لتلك العائلة من بنات فأجابوه نعم، فقام من توه إلى أهل الفتى وقال لهم لقد بان السبب فزال العجب إن ابنكم عاشق إحدى بنات تلك العائلة، وهذا هو المرض وعلاجه بالزواج من تلك الفتاة.

هذه القصة الطريفة تفسر أنه لماذا أكثر الأطباء العرب المسلمون الذين تحدثوا عن مرض العشق قد اعتبروا اضطراب النبض لدى ذكر المعشوق هو من العلامات التشخيصية لهذا المرض. يقول ابن سينا في علامات هذا المرض: "وعلامته غؤور العين ويبسها وعدم الدمع إلا عند البكاء، وحركة متصلة للجفن ضاحكة كأنه ينظر إلى شيء لذيذ أو يسمع خبرا سارا أو يمزح. ويكون نفسه كثير الانقطاع والاسترداد فيكون كثير الصعداء. ويتغير حاله إلى فرح وضحك أو إلى غم وبكاء عند سماع الغزل ولاسيما عند ذكر الهجر والنوى. وتكون جميع أعضاؤه ذابلة خلا العين:

لغتنا في الحب لحاظ عيوننا

فنحن سكوت والهوى يتكلم

فإنها تكون مع غؤور مقلتها كبيرة الجفن سميكته لسهره. ويكون نبضه نبضا مختلفا بلا نظام البتة كنبض أصحاب الهموم، ويتغير نبضه وحاله عند ذكر المعشوق خاصة وعند لقاءه بغتة. ويمكن من ذلك أن يستدل على المعشوق أنه هو إذا لم يعترف به، فإن معرفة معشوقه أحد سبيل علاجه. والحيلة في ذلك أن تذكر أسماء كثيرة تعاد مراراً وتكون اليد على نبضه، فإذا اختلف بذلك اختلافاً عظيماً وصار شبه المنقطع ثم عاود وجرب ذلك مرارا علمت منه اسم المعشوق. ثم يذكر كذلك السكن والمساكن والحرف والصناعات والبلدان، وتضيف كلا منها إلى اسم المعشوق ويحفظ النبض، حتى إذا كان يتغير عند ذكر شيء واحد مراراً جمعت من ذلك خواص معشوقه من الاسم والحرفة ما عرفته. فإنا قد جربنا هذا واستخرجنا به ما كان الوقوف عليه منفعة)".

يمكن تلخيص أعراض وعلامات مرض العشق كما ذكرها الأطباء المسلمون القدامى: النحول - قلة الشهية - غؤور العين مع سماكة الجفن - حب العزلة مع الاسترداد وكثرة الصعداء - اضطراب النبض وخاصة تسرعه لدى ذكر المعشوق أو أي شيء يتصل به.

## المعالجة:

لقد أجمع الأطباء العرب المسلمون الذين تحدثوا عن مرض العشق أن أفضل وأنجع علاج لهذا المرض هو الجمع بين العاشق والمعشوق وذلك على نحو تبيحه الشريعة.

يقول سبط المارديني في ذلك: "العلاج لاشيء كالوصال لمن يتهيأ على الوجه الشرعي، وإلا أهين وقبح بفعله، وإشغاله ببعض العلوم العقلية ومجالس أهل الفضل ثم استفراغ بعض السوداء. ويكثر من صب الماء على الرأس. ويطعم البطيخ والقثاء والبقلة، ويسقى الرايب الحامض، ويؤمر أن ينام تحت الندى. وذكروا أن النظر إلى القمر عند امتلائه يمنع هذا المرض. وينصح بكثرة الاغتسال بالماء البارد أيضا. ولا يعطى الأشياء الحارة من الأدوية والأغذية والأهوية".

مما سبق يمكن أن نذكر مقومات علاج مرض العشق على النحو التالي:

أولاً- محاولة الجمع بين العاشق والمعشوق بالزواج إن أمكن، وفي ذلك يقول ابن هبل البغدادي: "العلاج لاشيء أنفع من الجمع بين العاشق ومعشوقه على وجه تبيحه الشريعة، فإنه يصلح ويبرأ. وإن لم يكن فالنظر من بعيد، وإلا فالتسويف".

ويوضح ابن سينا هذه الحقيقة بقوله: "ثم إن لم تجد علاجا إلا تدبير الجمع بينهما على نحو يبيحه الدين والشريعة فعلت، وقد رأينا من عاودته السلامة والقوة، وعاد إلى لحمه. وكان قد بلغ الذبول وجاوزه، وقاسى الأمراض الصعبة المزمنة والحميات الطويلة بسبب ضعف القوة لشدة العشق. ولما أحس بوصل من معشوقه بعد مطل معاودة في أقصر مدة قضينا به العجب، واستدللنا على طاعة الطبيعة لأوهام النفس".

ثانياً- نصح العاشق وتعنيفه على أفعاله إذا كان من العقلاء. يقول ابن سينا أيضا: "وإن كان العاشق من العقلاء فإن النصيحة والعظة له والاستهزاء به وتعنيفه والتصوير لديه أن ما به إنما هو وسوسة وضرب من الجنون، مما ينفع نفعه، فإن الكلام ناجع في مثل هذا الباب".

ثالثاً- إشغال العاشق ببعض العلوم العقلية ومجالس أهل الفضل، أو إشغاله ببعض الأمور الدنيوية الأخرى التي تصرف تفكير العشق عن كثرة التفكير بمعشوقه. وقد تفنن الأطباء العرب في هذا المجال بابتكار الوسائل التي من شأنها أن تحقق هذا الغرض. فمن هذه الأمور ذكروا:

١- إشغال المريض ببعض العلوم العقلية ومجالس أهل الفضل، وذلك إذا كان ممن عنده الاستعداد لذلك. وإذا كان من المتدينين فيمكن تسليته بأخبار الزهاد والعباد والمساكين.

٢- إذا كان العاشق صاحب صنعة أو عمل أو شغل ألزم بعمله أو شغله فلا شيء أضر عليه من البطالة والفراغ.

٣- طول السفر عن مكان إقامة المعشوق، حيث أن ذلك مما يولد النسيان مع مرور الزمن.

٤- ذكر بعض الأطباء - كابن سينا - أنه من الناس يسليه الطرب والسماع، ومنهم من يزيد ذلك من غرامه، ويمكن أن يتعرف ذلك.

٥- مما ينفع هؤلاء أيضا مجالس السرور واللهو والفرح، والتنزه وكثرة النظر إلى القمر. وهذه كلها اعتبرت من الأمور التي تصرف تفكير العاشق عن معشوقه.

رابعاً- إفراغ المرة السوداء من الجسم والقضاء على مفاعلاتها السلبية في الجسد، وذلك بالتجفيف والتبريد. لذلك نصح الرازي بكثرة الاغتسال بالماء البارد، وحذّر من الأشياء الحارة من الأدوية والأغذية. وكذلك نصح بالنوم في الأماكن الباردة.

خامساً- الميل لتناول بعض الأغذية التي لها صفة التبريد مثل الرايب الحامض والبطيخ والقثاء والبقلة وغيرها من الأطعمة التي تساعد على استفراغ المرة السوداء وبالتالي تحقق غاية التبريد.

سادساً- أخيراً فقد نصح بعض الأطباء لمعالجة هذا المرض بأن تسلط بعض العجائز على العاشق، بحيث يجتهدن في أن ينقلن هوى

العاشق إلى غير ذلك المعشوق بالتدريج، ثم يقطعن صنيعهن قبل أن يتمكن الهوى الثاني.

مرض العشق والطب الحديث:

في نهاية هذا البحث لابد لي من أن أشير إلى مرض العشق من الوجهة الطبية الحديثة. فقد يتساءل البعض لماذا لا تبحث المؤلفات الطبية الحديثة ولاسيما كتب الطب النفسي ما سمي قديما بمرض العشق؟

للجواب على ذلك لابد لنا أن نعلم أن مرض العشق يمكن أن نعبر عنه حالياً على أنه شكل من أشكال الشدة العاطفية **Emotional stress** التي يخضع لها المريض. وهذه الشدة العاطفية وبحسب درجاتها قد ينجم عنها مرضيات نفسية مختلفة وذلك حسب شخصية المريض وخلفيته الاجتماعية وظروفه المحيطة به، فضلا عن استعداده الشخصي. فبعض الذين يخضعون لشدة عاطفية شديدة قد يصابون بعصاب القلق **Anxiety neurosis**، ومنهم من يصاب بحالة الكآبة والارتكاسة **Reactive depression**، كما قد يصاب بعض المرضى الذين عندهم أصلا شخصية شبه فصامية بحالات فصام **Schizophrenia** صريحة، كما هو الحال في الفصام الشبابي أو ما يسمى بفصام المراهقة. من ذلك نستنتج أن ما كان يعرف بمرض العشق هو عبارة عن أحد أشكال الشدة العاطفية التي قد تؤدي لحدوث اضطرابات نفسية خطيرة يمكن لها أن تؤدي في بعض الأحيان لحدوث خطر الانتحار، وخاصة عند الذين أصيبوا بحالة الهمود الإرتكاسي.

النتائج:

من خلال هذا البحث يمكن أن نستنتج بأن مرض العشق كان يعتبر أحد أمراض الجهاز العصبي والتي يصاب بها الإنسان كالصرع والسوداوية والفالج. وبالرغم من أن هذا المرض قد تم وصفه من قبل الأطباء الإغريق، إلاّ أن الأطباء العرب المسلمين كانوا قد أولوه عناية خاصة، لا سيما فيما يتعلق بالطرق التشخيصية والعلاجية لهذا المرض. ومن الملاحظ أن الأطباء العرب قد أبدعوا ليس فقط بالعلاجات الدوائية والتي كانت معروفة وقتئذ، وإنما ركزوا أيضاً على المعالجة السلوكية والنفسية لما لها من دور هام في العلاج.

الخاتمة:

من خلال هذا البحث يمكن أن نتبين الدور الكبير الذي اضطلع به الأطباء العرب المسلمون الأوائل ليس فقط في الحفاظ على العلوم الطبية لدى الحضارات التي سبقتهم، وإنما أيضاً من خلال ما أضافوه إلى تلك المعارف من خلال ممارستهم للطب. وليس أدل على ذلك من الوصف السريري الدقيق لهذه الحالة المرضية (مرض العشق) ومدى التفنن في تقديم كافة أنواع العلاجات لها.

---

- الآسي: هو الطبيب.
- السوداء: مرض الهمود أو الكآبة.
- الفدامة: قلّة الفهم.
- المالينخوليا: السوداوية، هي الميل إلى الكآبة.

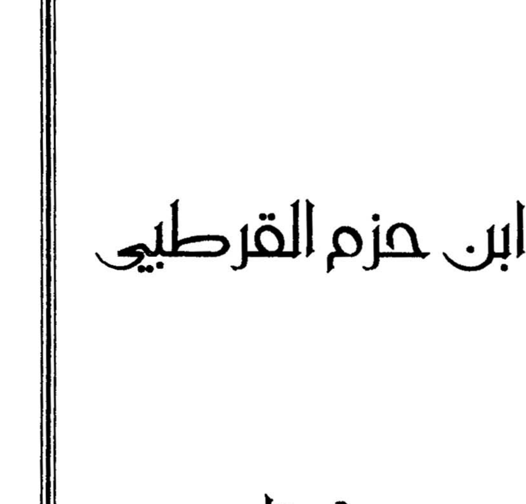


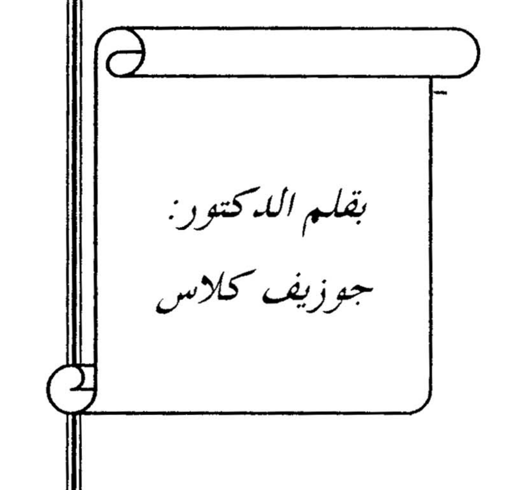

# يضيء لي وجهك..

الدكتور عمر النص

يضيء لي وجهك يا أميرتي
يضيء لي وجهك يا قبّرتي..
يا طفلة ألمح في مقلتها بدايتي..
ألمح في مقلتها نهايتي..
يا طفلة أملح في مقلتها طريقي..
يا نجمة تمر فوق جبهتي..
تبحث عن طريقها..
تبحث عن بحر من البريق..
يا واحة تولد في مغاوري..
يا واحة تشرب من محاجري..
يا واحة تسيل في عروقي..
إني أرى ممالكي كأنها تهرب من حدودها..
كأنها تصرف عن راياتها..
كأنها تمضي مع الريح بلا رفيق..
هذا دمي!
كأنّ فيه نخلةً ظامئة تحلم بالماء الذي قد خانها..
تحلم بالغصن الذي ينعم بالظل الوريف..
يضيء لي وجهك يا أميرتي..
يا فرحة أعلم ما وراءها..
أعلم أنّ الكأس زلت من يدي..
أن السدود انكسرت..
أن الغيوم احترقت أثداؤها..
أن الأساطير غدت خرساء مثل صنم غريق..
أعلم أن البحر قد جن بها..
أعلم أن الموج قد سال على حريرها الرقيق..
يضيء لي وجهك يا منارتي..
يا مرفأ يهب لي عواصفي..
يا مرفأ يهب لي مراكبي..
يا مرفأ يهب لي ما شئت من بروق..
هذي يدي..
فاستسلمي..
إني رأيت النجم يطلع في نهاية الطريق..




هو ابن حزم القرطبي صاحب التآليف الكثيرة والذي عُني ميجيل آسين بلاثيوس بدراسته عناية عظيمة فيما بين سنتي ١٩٢٨م و ١٩٣٢م، وعرفنا به تعريفا طيبا. وكان أبو محمد علي بن حزم (٣٨٣- ٤٥٤هـ/ ٩٩٤-١٠٦٣م) ابنا لأحمد بن حزم وزير المنصور، وقد صحب في شبابه شيخه وأستاذه أبا علي الحسين بن علي الفاسي؛ وكان، على قول ابن حزم، «عاقلا عاملا عالما ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الدنيا والاجتهاد للآخرة... وما رأيت مثله - جملة - علما وعملا ودينا وورعا، فنفعني به الله كثيرا، وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي».

درس أبو محمد بن حزم الحديث على أبي عمر أحمد بن محمد بن الجَسُور دراسة طيبة، فتهيأ له بذلك أساس مكين بنى عليه فيما بعد معارفه بأصول الدين والشرع، ودرس (تاريخ الطبري) دراسة فهم وتمعن فأصاب من ذلك إدراكا طيبا لتاريخ البشر والأديان، وتعلم المنطق على يدي الكتاني، ودرس الأدب على أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي، ولا بد أنه ساهم كذلك في مجالس الأدب التي كانت شائعة في تلك البيئة المهذبة المثقفة الرفيعة التي نشأ فيها.

وقد تعلق أبو محمد بن حزم - وهو بعد صبي يافع - بفتاة ذات حسن، كان أبواه قد حضناها وقاما على تربيتها، فتمنعت عليه، ولم تظهر له قط من القبول ما يفسح له مجال الأمل فيها، فطوى نفسه على آلام هذا الهوى. وقد نسب دوزي تولع ابن حزم بهذا الهوى العذري إلى طبع متأصل في جنسه، وعلله بما قال من أن ابن حزم ينحدر من أصل نصراني؛ وقد نقض الأستاذ آسين بلاثيوس رأي دوزي هذا، وأتى بأمثلة كثيرة من هذا الحب العذري والعفة الزوجية عند مسلمي الأندلس، في نفس العصر الذي عاش فيه ابن حزم. ورد هذه الظاهرة إلى ما في الإسلام من نوازع زهدية، وقال إن وجودها دليل قاطع على ما يكمن في نفوس

الشعوب الإسلامية من مثالية عظيمة، كان الناس ينكرونها عليها إلى ذلك الحين.

وفي عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، توفي أبوه، وكان قد أقام في خدمة العامريين حتى مقتل عبد الرحمن بن منصور بن عامر، وعندما شبت الفتنة البربرية أخرج ابن حزم من قرطبة، إذ كان رأسَ بيت مناصر لبني أمية، متمسك بحقهم في العرش، لطول ما اتصل رجاله بخلفائهم وأقاموا في خدمتهم. ونهب قصر ابن حزم بعد خروجه من قرطبة، فتوجه إلى المرية وأقام فيها، وهناك انصرف إلى تأييد عبد الرحمن الرابع – الملقب بالمرتضى – فيما كان يسعى إليه من طلب الخلافة بمؤازرة نفر من أنصاره. وسار ابن حزم مع جيش المرتضى لحرب بني حمود، فانهزم الجيش في موقعة (غرناطة) (٤٠٨هـ/١٠١٨م) وقتل المرتضى وأسر ابن حزم ثم أخلي سبيله فلجأ إلى شاطبة، واطمأن هناك ردحاً من الزمن كتب فيه كتاب (طوق الحمامة). وظل مع ذلك يدعو لعبد الرحمن الخامس الذي كان يطلب الخلافة لنفسه. فلما وفق عبد الرحمن إلى ما كان يسعى إليه، وارتقى عرش الخلافة وتلقب بالمستظهر عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م، استقدم ابن حزم وأقامه وزيراً له. ولم تدم خلافة المستظهر غير شهرين قُتل بعدهما في ٢٧ ذي القعدة ٤١٤هـ/١٠ فبراير ١٠٢٤م، وانتهى أمره، فنفي ابن حزم مرة ثانية من قرطبة، فآلى على نفسه ألا يضع في السياسة يداً من ذلك الحين، مؤمناً بأن أدعياء الخلافة لم يعودوا يحوزون ما ينبغي لها من نصاب شرعي، وأن الخلافة لم تعد حقاً إلهياً.

وهكذا ظل ابن حزم إلى ذلك الحين موزعا بين السياسة والأدب، أما بعد ذلك فقد كرس وقته كله لدراسة الدين والفقه.

أقبل ابن حزم على دراسة الفقه وهو في السادسة والعشرين من عمره، وكان دافعه إلى الإقبال على درسه ما ظهر ذات مرة في المسجد من جهله بفروض الصلاة، فأقبل يدرس الشريعة والفقه في نهم على يد الفقيه المشاور عبد الله ابن يحيى بن دَحُّون، فقرأ عليه موطأ مالك، وتتلمذ كذلك للشيخ أبي الوليد يونس بن الصفار.

ثم وجد من نفسه ميلاً لمذهب محمد بن إدريس الشافعي فانتقل إليه، وكان الشافعيون قلةً بين الأندلسيين. ولم يظل ابن حزم شافعيا إلاّ فترة قصيرة، إذ استحسن المذهب الظاهري، وهكذا نجده ظاهرياً قبل سنة ٤١٩هـ/١٠٢٩م – والظاهريون هم أتباع أبي داود ممن يلتزمون التقليد المأثور ويأخذون بالمعنى اللفظي الظاهر لكلم القرآن – وقد أنكر عليه فقهاء المالكية ذلك ومنعوه وأستاذه أبا الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت من التدريس في جامع قرطبة، فكان لموقف الفقهاء منه وتتبعهم إياه أثر عميق في خلقه ونفسه.

وبعد أن توفي أستاذه أبو الخيار بقليل، أقبل ابن حزم على تأليف كتبه ومضى يذرع ممالك الطوائف داعياً لمذهبه، وثارت بينه وبين الفقهاء المساجلات، فتجلى في مناقشاته علمه الواسع وتمكنه البالغ من اللغة والأدب والشعر والتاريخ والحديث والفقه وما إليها من العلوم الإسلامية. وظهرت كذلك إحاطته بضروب العلم القديمة من المنطق والفلسفة (عدا الرياضة)، وتحققه بكتابات اليهود والنصارى، والروايات التلمودية خاصة. وامتاز كذلك بمهارة فائقة في الجدل، يعيبها حَيْده في بعض مجادلاته عما ينبغي للعلم من أمانة، (كأن يحرّف كلِم النصوص، أو يفسرها تفسيراً ملتوياً مقصوداً، أو يبتر نصوص من يجادلهم من أصحاب المذاهب أو الأديان الأخرى بتراً مشوّهاً مفسداً، وما إلى ذلك)، «حتى أصبحت حدة ألفاظه وشدة الكلمات التي يستعملها مضرب المثل في بلاد الإسلام كلها».

ومن بين مجادلاته التي ذاع أمرها تلك التي جرت بينه وبين أبي الوليد الباجي في مَيورْقَة، (وكان ابن حزم قد لجأ إلى رعاية عاملِها ابن رشيق)، وكان الباجي فقيهاً مالكيا نابها وأشعريا فذا، ويبدو أن ابن حزم غلب في

مجادلة الباجي، ويرد ابن حيان ذلك إلى تعصبه لمذهبه ومبدئه السياسي.

وكان ابن حزم رجلاً صادقاً مخلصاً قويماً ذا ديانة وحشمة وسؤدد. وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها، وكان مخلصاً لأصحابه يتفانى في سبيلهم، لدوداً في خصومته، لا يصفح ولا ينسى ثأره، ولوعاً بالسخر من خصومه، شديد الاعتداد بما أوتي من علم؛ وكان كريماً عفيفاً وسطاً في إيمانه، لا هو ساذج يقبل كل شيء، ولا هو متشدد لا يقبل إلا حكم العقل، بل هو أقرب إلى العقليين منه إلى العاطفيين، كما يقول آسين بلاثيوس، «لأن مزاجه الذي جمع بين الهدوء والرزانة والنفاذ والصلابة والقدرة على قبول الحقائق الجافة، جعله بمنأى عن الاستغراق في فيوض الحياة الروحية».

ويقول آسين بلاثيوس: «إن ابن حزم قد عانى من ألوان الظلم ما أنضب معين الرقة واللين في نفسه، وشاهد من مساءات الفوضى السياسية التي ضربت الأندلس في أيامه ما نفر نفسه، وأوذي في نفسه وكرامته بما لقي من الاضطهاد، ورأى الناس أجمعين ينكرون قدره ويتجهمون له ويقاطعون مذهبه الديني ويحرمونه، فاستقر رأيه على أن يعتزل الدنيا والناس وينزوي في موطن أسرته مُنْت لِشَمْ، وهي بُليدة على مقربة من وَلْبَة ربما كَانت قرية كازا مونتيخا Casa montija - وذلك بعد أن صادر المعتمد بن عباد كتبه وأحرقها - وفي هذا المعتزل كتب كتابه (الأخلاق والسير في مداواة النفوس)، وهو أشبه باعترافات تفيض بالتشاؤم العميق».

ومن غرائب القدر وعبثه بمصائر البشر أن ابناً لابن حزم - هو أبو رافع الفضل - دخل في دعوة المعتمد بن عباد وأخلص في خدمته وقتل في موقعة الزلاقة، محارباً إلى جانب ألد أعداء أبيه.

## آثار ابن حزم في الفلسفة والشريعة وعلوم الدين والتاريخ

كان ابن حزم من أكثر خلق الله كتابةً وتأليفاً، ويبدو أنه درس وألّف في كل صنف من أصناف العلوم، عدا الرياضة. ومن أسف أن معظم مؤلفاته قد ضاع.

وسنتبع في عرض مؤلفات ابن حزم التصنيف الذي اتبعه آسين بلاثيوس في كتابه عن ابن حزم:

أ- الفلسفة: ألف ابن حزم كتبا في مراتب العلوم والمنطق وقد نقد أبي بكر الرازي، وقد ضاعت كلها. ولكن بقي لنا مما يستحق الذكر من تواليفه كتابه المسمى (الأخلاق والسير في مداواة النفوس). وقد أجمل آسين بلاثيوس وصفه بقوله: «إنه أشبه بسجل يوميات، دوّن فيه ابن حزم ملاحظات أو اعترافات تتصل بسيرة حياته، وهذه الملاحظات ترد في الكتاب دون ترتيب يُقصد به إلى التعليم والتربية، ولم يُراع في تنسيقها منطق. ونحن إذ نقرؤه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ دقيق الملاحظة أثناء تجاربه الواسعة، وصاغها في قالب مبادئ عامة وحكم».

ولا يخلو الكتاب مِن الفقرات الطوال، كالقطعة الجميلة التي يذم فيها الغرور، أو تلك التي يصارحنا فيها ابن حزم برذائل ونقائص أخلاقية يراها في نفسه، ويقررها في تواضع وإخلاص. وفي مواضع أخرى من الكتاب يصف ابن حزم أخلاق البشر في أسلوب يفيض حيوية، وتجرد عن الميل والهوى. وإن الإنسان ليشعر وهو يقرأ كلام ابن حزم في هذا المقام وكأنه يطالع كتب (الأخلاق) التي كتبها لابروبير أو (مقالات في الأخلاق والسياسة) لبيكون. وأعظم قيمة لهذا الكتاب الأخلاق - الذي صدر عن نفس يشوبها التشاؤم والتصوف - هي أنه يقدم لنا صورة حقيقية حية لنفسية مسلمي الأندلس في القرن الحادي عشر، وقواعد الأخلاق التي كانت مرعية في مجتمعهم. هذا

إلى جانب تلك الفقرات التي تتصل بحياة ابن حزم نفسه، وقد أشرنا إليها فيما سلف.

وإليك بعض أطراف من أقوال ابن حزم وحكمه في هذا الكتاب:

* من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم، ومن كافأ من أساء إليه منهم فهو مثلهم، ومن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم.

* أول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به، وأول من تهون الزانية في عينه الذي يزني بها.

* العرض أعز على الكريم من المال. ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله، ويصون نفسه بجسمه، ويصون عرضه بنفسه، ويصون دينه بعرضه؛ ولا يصون بدينه شيئاً أصلاً.

ب- الفقه والأصول: ألف ابن حزم كتباً كثيرة في الحديث والمذاهب، ولكن أهمها على الإطلاق هي:

كتاب (الإبطال) - الذي نشر جولد تسيهر جزءاً منه - وابن حزم يعرض علينا فيه ضعف أصول خمسة، أتبعتها بعض المذاهب الإسلامية في استخلاص الأحكام الشرعية، وهي: القياس، والرأي، والاستحسان، والتقليد، والتعليل. وأهمية هذا الكتاب راجعة إلى أنه يبين لنا الأسس التي بنى عليها ابن حزم مجادلاته ونقده للمذاهب الأخرى؛ وهو الكتاب الأساسي الذي يبسط لنا فيه دقائق المذهب الظاهري الذي اعتقده.

وله في هذا الموضوع أيضاً كتاب (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال)، الذي يوجز فيه ابن حزم ما بسطه في كتاب (الخصال الجامعة لمحصل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام)، الذي ضاع والذي يغلب على الظن أنه شرح لأصول المذهب المالكي ونقد له ومجادلة للمالكيين.

وله أيضاً كتاب (المُحلى في الخلاف العالي في فروع الشافعية) - محفوظ بدار الكتب المصرية - الذي يناقش فيه أصول المذهب الشافعي وينقدها؛ وكذلك كتاب (الفصَل) الذي سنتحدث عنه فيما يلي.

ج- علوم الدين: كتب ابن حزم رسالات كثيرة، نقض فيها آراء أصحاب المذاهب التي اعتبرها منحرفة عن الطريق القويم، أو دلل فيها على أن أسلوب القرآن معجز لا يشبه في شيء أي أسلوب من أساليب البلاغة الإنسانية؛ وقد ضاعت هذه الكتب. وصنف رسالات أخرى مثل: (بيان التحريفات التي أدخلها اليهود والنصارى على نصوص التوراة والإنجيل)، و (النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية من أقوال أهل البدع من الفرق الأربعة: المعتزلة، والمرجئة، والخوارج، والشيعة). وهذه كلها نجدها مجموعة في كتاب (الفصَل في الأهواء والنحل)، الذي نستطيع أن نعتبره بحق "تاريخاً للأديان"؛ وهو أهم ما كتب ابن حزم في موضوع الأديان.

حاول ابن حزم في دراساته في موضوع الأديان أن يوفق بين العقل والعقيدة - سابقاً ابنَ رشد إلى ذلك بقرن من الزمان - واجتهد في أن يطبق على الإلهيات أصول المذهب الظاهري الذي اعتقده، متبعاً في ذلك قواعد عامة أوجزها الأستاذ آسين بلاثيوس فيما يلي: «الأخذ بالمعنى الحرفي - الظاهر - للفظ القرآن، و - الاجتهاد - في تفسير آية تفسيراً عقلياً طبيعياً، اجتهاداً يقوم على ما ورد في معاجم اللغة من معاني الألفاظ، وما قرره اللغويون من قواعد البلاغة العربية وأصولها، والتزام ما أجمعت عليه الأحاديث الموثوق فيها مما صح سنده عن الصحابة أو ما قرره - إجماع - المسلمين، وذلك دون - تقليد - لرأي أي مذهب معين؛ وقد اعتمد ابن حزم في ذلك على مذهب الغنوص الذي يقول بأن ذات الله وصفاته وأفعاله لا يحيط بها العقل البشري، إذ أن الإيمان لا بد أن يصدر عن قلب مدرك

لوجود الله بالفطرة، إذ بغير ذلك لا يتيسر للعقل الإنساني أن يدرك ذات الله وصفاته وأفعاله».

د- التاريخ: خلف ابن حزم لنا مادة طيبة في التاريخ، منها كتاب (جمهرة أنساب العرب) - وقد نشره ليفي بروفنسال في القاهرة سنة ١٩٤٨ - وهو عظيم الفائدة لمن يدرسون تاريخ الإسلام في المشرق والأندلس، ومنها كتابه (نقط العروس) - وقد نشره زايبولد في غرناطة سنة ١٩١١م، وأعاد نشره سيكو Seco سنة ١٩٤٦م، ثم الدكتور شوقي ضيف في القاهرة ١٩٥١م - وهو يضم معلومات مقتضبة عن خلفاء المشرق والأندلس وحكامهما، مرتبة "فصولا بحسب جوامع مختلفة تربط بينهم، مثل «أول الأسماء التي وقعت على الخلفاء رضي الله عنهم»، و «تسمية من ولي الخلافة في حياة أبيه» و «مَن ولِيَ منهم صبيا»، و «أكثر الخلفاء عمرا»، وما إلى ذلك؛ وكأنما مادة هذا الكتاب فقط كان قد وضعها ابن حزم لينشئ حولها كتابا مطولا. وله كذلك (الرسالة) المشهورة في (بيان فضل الأندلس وذكر علمائه)، وقد احتفظ لنا المقري بنصها في (نفح الطيب)، وترجمها جايانجوس إلى الإنكليزية. وقد كتب ابن حزم هذه الرسالة جوابا على ما ورد في خطاب بعث به أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي القيرواني إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن ابن حزم، «يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلهم وسير ملوكهم»، فانبرى ابن حزم يذكر علماء الأندلس ويعدد أفضالهم ومؤلفاتهم في حماس بالغ لوطنه. وقد قال آسين بلاثيوس في حق هذه الرسالة القيمة: «إنها تضم ثبتا بما ألف الأندلسيون في صنوف الآداب والعلوم، وهي في فصول كل منها يدور حول صنف من العلوم والآداب»، ويذكر ابن حزم أمهات مؤلفات الأندلسيين في كل علم وفن، وإليك فهرست أبواب الرسالة:

«مقدمة في فضل الأندلس وأهله ومزايا قرطبة مع ملاحظات طريفة على أخلاق أهل الأندلس - أحكام القرآن والحديث ورجاله والفقه (المالكي خاصة) - اللغة - الشعر - الأخبار (التاريخ والطبقات) - الطب - العدد والهندسة - علم الكلام - خاتمة في المقارنة بين أعلام العلماء في المشرق والأندلس».

كتاب الفصَل

وأشهر ما ألف ابن حزم في مادة التاريخ وأعظمه قيمة هو كتاب (الفصَل في الملل والأهواء والنحل)، وهو تاريخ نقدي للأديان والفرق والمذاهب - نشر في القاهرة سنة ١٣٢١. وترجمه إلى الإسبانية آسين بلاثيوس، ونشره في سنتي ١٩٢٧ و ١٩٢٨ - وهو كتاب ضخم حافل بما فيه من مادة وأفكار، يعرض فيه ابن حزم لشتى مذاهب الذهن البشري في موضوع الدين، من الإلحاد المطلق الذي عليه السفسطائيون الذين لا يؤمنون بشيء، بل لا يؤمنون بأن تفكيرهم نفسه حقيقة مجردة، إلى إيمان العوام الذين يصدقون كل شيء، ويؤمنون بالخرافات في جهل، ولا يشكون في شيء.

ثم يقول آسين بلاثيوس: «إن ابن حزم يقسم الناس - من حيث موقفهم من أمر العقيدة - إلى ستة أقسام يرتبها بحسب بعدها أو قربها من الإسلام، وهي:

أولا: شك السوفسطائية، الذين يبطلون الحقائق.

ثانياً: إلحاد الفلاسفة، الذين ينكرون وجود إله خالق ويقولون: «إن العالم قديم، وليس له مدبر».

ثالثا: كفر الفلاسفة، الذين يقولون: «إن العالم لم يزل، وله مع ذلك فاعل».. أي ينكرون وجود إله خالق للعالم الأزلي.

رابعا: ثنائية الإله التي يقول بها الزردشتيون والمانويون، وتعدد الآلهة الذي يقول به النصارى والمؤمنون بالثالوث.

خامساً: توحيد البراهمة والعقليين، الذين يؤمنون بوجود إله واحد، ولكنهم ينكرون النبوة والملائكة.

سادساً: توحيد اليهود ومن أنكر التثليث من النصارى، ومذهب الصابئة ومن أقر بنبوة زردشت من المجوس وأنكر ما سواه.

ثم يأتي الإسلام بعد ذلك، ويرى ابن حزم أنه العقيدة الإيجابية الوحيدة الحقة، وبرسالته المحمدية نَسَخ الله ما أوحى به من قبل إلى أنبياء بني إسرائيل، بما فيهم عيسى. ويرى ابن حزم في المسيح أنه نبي حق فحسب، وهو رأي عامة المسلمين فيه. وهو يدرس - في نفس الوقت - ما عليه بعض الناس من عدم الإكتراث بالدين، وما عليه جهلاء العامة من تصديق لكل شيء وإيمان بالمعجزات الكاذبة، وما يزعمه البعض من تفسير الأحلام واستخراج الأحكام عن طريق النظر في النجوم.

وعندما يعرض ابن حزم لموضوع النزاع الشديد بين الدين والعقل، يدرس طبيعة الإيمان عند العوام وعند أهل الفكر والتدبير، ويقول بالابتعاد عن التعصب الشديد غير الفلسفي، ولا يرضى كذلك عن اتباع العقل المطلق، ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين العقل والإيمان، مما يطابق تمام المطابقة المذهب الظاهري الذي كان هو نفسه عليه.

ولما كانت مذاهب إبطال الحقائق إطلاقاً - وهو ما يقول به السوفسطائيون والإلحاديون ومن يقولون بوجود الخالق ولكنهم ينكرون النبوات - تنكر كل الأسس التي تقوم عليها العقائد، فإن ابن حزم يطيل النظر في هذه المذاهب الثلاثة وينقضها، ويخرج من ذلك كله بإثبات وجود حقيقي للكون، ويدلل على صدوره عن غيره، وعلى أنه موقوت بأجل، ويقول بعد ذلك: "فإن تمادَى الكلام وجب بما قدّمناه ألاّ نهاية، واللا نهايةُ في العالم من مبدئه باطلٌ ممتنع محال، فإذن قد بطل أن يخرج العالمُ بنفسه، وبطل أن يخرج دون أنِ يُخرجه غيره.. فقد ثبت الوجه الثالث ضرورة، وإذ لم يبق غيره البتة، فلا بد من صحته، وهو أن العالم أخرجه غيرهُ من العدم إلى الوجود وبالله تعالى التوفيق».

ثم يعرض بعد ذلك «لآثار صنعة الله التي لا يِشكّ فيها ذو عقل» ويقول: «وليس هذا البتة من فعل طبيعة ولا بنسج ناسج ولا بنّاء ولا صانع أصباغ مرَتبة، بل هو صَنعة صانع مختار قاصد إلى ذلك، غير ذي طبيعة، لكنه قادر على ما يشاء. هذا أمر معلوم بضرورة العقل وأوله يقيناً، كما نعلم أن الثلاثة أكثر من الإثنين، فصَحّ أنه خالق واحد أولٍ حق؛ لا يشبه شيئاً من خلقه البتة، لا إله إلا هو الواحد الأول الخالق عزّ وجل».

وهو ينكر من العقائد الإيجابية المجوسية - وهي الزردشتية - وما تقول به من ألوهة أورمز وأهرمَن وما يندرج تحتها من مذاهب أشهرها المانوية والمَزْدَكِيّة؛ وهو ينكر كذلك عقائد الصابئين والنصارَى، ويعتبر هؤلاء الأخيرين مشركين لأنهم يقولون بالثالوث. وابن حزم يعرف مذاهب النصارى المختلفة ويفرّق بين أولئك الذين ينكرون الثالوث منهم (أصحاب أريوس وأصحاب بولس الشمشاطي وأصحاب مقدونيوس)، ومن يقولون بالثالوث (الملكانيون - وهم الكاثوليك الأرثوذكسيون - والنسطوريون واليعاقبة وهم المونوفيزيون)، ويعرف كذلك الأقطار التي يسود فيها كل مذهب من هذه المذاهب.

وبعد أن يفرغ ابن حزم من نقض عقيدة الثالوث والتجسد، يمضي بعد ذلك في إثبات عقيدة التوحيد؛ وأول ما يتناوله للوصول إلى ذلك هو التدليل على إمكان الوحي الإلهي وضرورته وعلى أنه حق. وفي سياق الكلام في هذا الموضوع، يقف ابن حزم لحظة ليناقش طائفة من العقليين، كانوا ينكرون الوحي مؤيدين رأيهم بالقول بأن أجناس البشر نشأت عن أصول متعددة، خلقت كلها في وقت واحد في أقطار متباينة، ويُثبت لهم أن الله تعالى خلق من النوع الإنساني ذكراً واحداً وأنثى واحدة، بإجماع آراء أهل الأديان جميعاً (من

الهند والمجوس والصابئين واليهود والنصارى والمسلمين) وآراء مَن يسميهم - البراهمة - (وهم من غير شكَ الشانيُّون والبوذيون من أهل الهند.

وهو يثبت ضرورةَ الوحي الإلهي بطريقة قريبة جداً من تلك التي أتبعها بونالد **Bonald** عندما تعرض لهذا الموضوع في القرن التاسع عشر. وابن حزم يستند إلى حجة سيُدخلها القديس توما الأكويني فيما بعد في علم الإلهيات عند الإسكولاستيين، وتقوم هذه الحجة على القول بعجز البشر - عن طريق العقل الصرف - عن الوصول إلى الحقائق الدينية التي لا بد من معرفتها لإدراك الغاية من الدين وحكمته.

وهكذا يدحض ابن حزم آراء مدرستين فلسفيتين متطرفتين، كثر أتباعهما إذ ذاك في العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً: الأولى كانت تقول بدين واحد لكافة البشر، والأخرى كانت تنكر الأديان المنزلة جميعاً، نتيجةً لما كان يقول به أصحابها من أضاليل.

ولكن، أيّ الأديان الثلاثة المنزلة هو الصحيح: اليهودية، أم النصرانية، أم الإسلام؟ يجيب ابن حزم على هذا السؤال بطريقة يوجزها آسين بلاثيوس بقوله:

«يذهب ابن حزم إلى أن الأنجيل - بعهديه: القديم، والجديد - قد حُرِّفت كلماته عن مواضعها على أيدي النصارى واليهود، وأن كلا هذين الفريقين لا يستطيعان القوم بأن ما بأيدي أصحابهما من كتب كتبٌ منزلة، وخاصة بعد أن نسخت عقائدهما بالرسالة المحمدية.

أما عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة - وهي: السامرية، والصدوقية، والعَنانية (وهي القرائية، وهم أصحاب عَنان الداودي اليهودي) والربانية (أو الثلمودية، وهم الأشعنية وهم جمهور اليهود) والعيسوية (أصحاب أبي عيسى الأصبهاني) - فيدحضها ابن حزم بالقول بأن كتبها المقدسة قد حرف كلمها، ويجتهد في إثبات رأيه بمناقشة نصوص التوراة وغيرها من كتب بني إسرائيل مناقشة ناقد مطلع عليها، ويذهب إلى أنه من المستحيل عقلاً أن تكون هذه الكتب قد بقيت على أصولها دون تحريف، ويدلل على ذلك بأدلة يأتي بها من التاريخ.

أما المسيحية فينكر ابن حزم صحتها، بالقول بأن الكتب التي تضم عقائدها وقواعدها الأخلاقية، إما أن تكون من وضع البشر أو حرفت نصوصها الأولى.

وابن حزم يمضي في تفسير ما يعرض من نصوص هذه الكتب - وذلك في ذاته برهان قاطع على اطلاعه الواسع - متبعاً قواعد مذهبه الظاهري من التفسير الحرفي الجاف، منتهجاً نهجاً تشككيّاً ساخراً فولتيريّاً شبيهاً بما نعرفه في أيامنا، دون أن نشعر ونحن نقرأه أنه أحس - ولو إحساساً يسيراً جداً - بما تنطوي عليه المسيحية من «حنو إلهي»، أو أنه أدرك فكرتها عن «الله أبي البشر». ولكن قيمة الكتاب عظيمة جداً في تعريفنا بأفكار المستعربين الإسبان وأحوالهم، وما كانوا يقومون به من طقوس».

فإذا فرغ ابن حزم من إبطال آراء النصارى واليهود، فقد خرج من ذلك بأن الدين الوحيد الصحيح المنزل هو الإسلام. وابن حزم يلجأ في إثبات صحة الرسالة المحمدية وعُلوية عقيدتها بحجج تشبه تلك التي يستعملها كتاب النصارى في إثبات فضائل النصرانية وميزاتها. ثم يتعرض بعد ذلك لمناقشة المذاهب الإسلامية لتعرف أصحها وأقربها إلى النهج الصحيح. يقول آسين:

«إن ابن حزم يبدأ بذكر مذاهب الزندقة الأربعة الرئيسية التي ظهرت في الإسلام، مع ذكر الفرق الفرعية التي تتفرع عن كل منها، ويعرّفَ بها واحدة فواحدة، بذكر «عمدتهم التي يتمسكون بها» ويكشف عن طبيعتها عن طريق عرض ما يحاول أصحابها مجادلته أو إفساده من الأركان الأساسية لمذهب أهل السنة؛ فيقول مثلاً إن المرجئة يضلون في فهم الإيمان وما يكون في الآخرة، والمعتزلة لا يفهمون التوحيد والقدَر (حرية البشر في الاختيار)، والشيعة لا يفهمون معنى الإمامة،

والخارجية يقعون في نفس الخطأ ويقعون كذلك في الخطأين اللذين يقع فيهما المرجئة.

ويعتقد ابن حزم أن روح العصبية الفارسية هي مصدر المذاهب الضالة كلها في الإسلام، ويقول: إن الفرس «لما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب – وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا – تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، ففي كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق. وكان من قادتهم سنْبِاذْ وأُسْتَاذْسيسْ والمقنع (الكندي) وبابَكْ (الخَرَّمي) وغيرَهم، وقبل هؤلاء رام ذلك عمَّار الملقبَ بخداش وأبو مسلم السرَّاج، فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم على الإسلام واستمالوا أهل التشيع، بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ واستشناع ظلم علي رضي الله عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام"؛ أي أنهم أوهموا الناس أنهم دخلوا الإسلام، لكي يكون ذلك أعون لهم على إفساد أمره وإدخال عقائد المجوسية وطقوسها في رحابه. وقد سلكوا إلى ذلك طريق التأويل لآي القرآن، ومن هنا تتبين ضرورة التفسير الحرفي "الظاهري" للقرآن حتى ينكشف ضلالهم».

ويجمع ابن حزم الآراء الضالة التي قال بها أصحاب الفرق والمذاهب المختلفة في موضوع الأركان الأساسية للعقيدة القويمة تحت أبواب خمسة هي:

- التوحيد (الله).
- القدر (الجبر والاختيار).
- الإيمان (العقيدة).
- الوعد والوعيد (الحياة الأخرى).
- الإمامة.

ثم يمضي في معالجتها في أسلوب قريب مما سار عليه القديس توماس الأكويني في (خلاصة علوم الدين **Suma theologica**).

ونتيجة ذلك أن كتاب ابن حزم صار تاريخاً لعلم الكلام في الإسلام، مع اتجاه واضح لبيان فضائله،وإن لم ينقصه بين الحين والحين ذلك الطابع الموضوعي المتجرد عن هوى صاحبه، ولكن يعوزه إدراك فكرة تطور العقائد التي غلبت على دراسات تاريخ الأديان في القرن التاسع عشر. وابن حزم يبين لنا في كتابه تيارات الثقافة القديمة، والمؤثرات النصرانية التي دخلت على الإسلام.

ويقول آسين بلاثيوس: «إننا لا نجد بين أيدينا وثيقة هي أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب (الفصل) لابن حزم تمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذي لم يتوقف أبداً خلال العصور الوسطى فيما يتصل بتاريخ الآراء والمذاهب، ففي ثنايا صفحات هذا الكتاب يتجلى لنا ذلك النسيج الذهبي الذي تتألف منه الفلسفة الخالدة، ذلك النسيج الذي صنعته أوفر عبقريات الإغريق حكمةً بأيديها الصبور في مهارة فائقة، وعلى ضوء صفحاتها نرى كيف يزداد النسيج سعة وامتدادا، وكيف تدخل في تكوينه على مر العصور أنسجة جديدة؛ وربما وجدنا أن هذه الأنسجة الجديدة لا تضاهي نسيج الإغريق روعة وبريقا ولكنها لا تقل عنه متانة وقدرة على البقاء، ونراها تجود وتزداد إحكاماً بفضل ما أدخله عليها التفكير النصراني الشرقي وما أضافه إليها المسلمون من مادة أوفر. وقد كان المسلمون آخر من انتهت إليهم أطراف هذه العناصر كلها، ولهذا فقد تجمعت بين أيديهم ثمرات هذا التطور الفكري الغني ونتائجه، ومن ثم لم يكن بالعسير عليهم أن يسبقوا مفكري النصارى من أهل الغرب في تحليلها ووضع منهجها وأساسها اللذين سيقوم عليهما التفكير المنهجي الإسكولاستي في القرن الثالث عشر».

وإليك نموذجاً من أسلوب ابن حزم في (الفصل) نتخيره من الفصل الذي يدلل فيه على صحة وجود الوحي والنبوة، قال أبو محمد:

«... فإذا قد أثبتنا أن النبوة – قبل مجيء الأنبياء عليهم السلام – واقعة في حد الإمكان، فلنقل الآن بحول الله تعالى وقوته على وجوبها إذا وقعت ولا بد، فنقول: إذ قد صح أن الله تعالى ابتدأ العالم ولم يكن موجودا حتى

خلقه الله تعالى، فبيقين ندري أن العلوم والصناعات لا يمكن البتة أن يهتدي أحد إليها بطبعه - فيما بيّنا - دون تعليم، كالطب ومعرفة الطبائع والأمراض وسببها على كثرة اختلافها ووجود العلاج لها بالعقاقير التي لا سبيل إلى تجريبها كلها أبداً. وكيف يجرب كل عقارٍ في كل علة؟ ومتى يتهيأ هذا ولا سبيل له إلا في عشرة آلاف من السنين ومشاهدة كل مريض في العالم؟ وهذا يقطع دونه قواطع الموت والشغل بما لا بد منه من أمر المعاش وذهاب الدول وسائر العوائق. وكعلم النجوم ومعرفة دورانها وقطعها وعودها إلى أفلاكها مما لا يتم إلا في عشرة آلاف من السنين، ولا بد أن يقطع دون ضبط ذلك العوائق التي قلنا. وكاللغة التي لا تصح تربية ولا عيش ولا تصرف بها، ولا سبيل إلى الإتفاق عليها إلا بلغة أخرى ولا بد، فصح أنه لا بد من مبدأ للغة ما. وكالحرث والحصاد والدراس وآلاته والعجن والطبخ والحلب وحراسة المواشي واتخاذ الأنسال منها والغرس واستخراج الأدهان ودق الكتان والقنب والقطن وغزله وحياكته وقطعه وخياطته ولبسه وآلات كل ذلك وآلات الحرث والأرحاء والسفن وتدبيرها في القطع بها للبحار والدواليب وحفر الآبار وتربية النحل ودود الخز واستخراج المعادن وعمل الأبنية منها ومن الخشب والفخار، وكل هذا لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم. فوجب - بالضرورة ولا بد - أنه لا بد من إنسان واحد فأكثر علمهم الله تعالى ابتداءً كل هذا دون معلم، ولكن بوحي حققه عنده، وهذه صفة النبوة. فإذاً لا بد من نبي أو أنبياء ضرورةً، فقد صح وجود النبوة والنبي في العالم بلا شك».

## آثار ابن حزم الأدبية:
## «طوق الحمامة في الألفة والألاف»

يعتبر الطوق أهم ما ألف ابن حزم في باب الأدب، وهو رسالة عن (الألفة والألاف) أي الحب والمحبين. ويقع الكتاب في ثلاثين فصلاً يدور كل منها حول موضوع معين من موضوعات الحب، مُرْسَلَةً كلها بطريقة متشابهة يلتزمها ابن حزم في كل فصل منها، فيبدأ بتعريف نوع الألفة الذي يدور عليه الفصل أو يصف خاصية من خصائصه يتخيرها، ثم يورد طائفة من الحكايات الواقعية يدلل بها على صحة ما يقول، وتتخلل الكلام كله قطع من شعر ابن حزم نفسه.

ويضع ابن حزم فصولِ الكتاب كلها في أقسام أربعة تجمع ثلاثين باباً، وقد أورد بيان تقسيم كتابه في الباب الأول منه عن ماهية الحب فقال:

«وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً، منها في أصول الحب عشرة. فأولها هذا الباب، ثم باب في علامات الحب، ثم باب في ذكر من أحب في النوم، ثم باب في ذكر من أحب بالوصف، ثم باب في ذكر من أحب من نظرةٍ واحدة، ثم باب في ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب التفسير.

ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة إثنا عشر باباً وهي: باب الصديق المساعد، ثم باب الوصل، ثم باب طي السر، ثم باب الكشف والإذاعة، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها، ثم باب القنوع، ثم باب الوفاء، ثم باب الغدر، ثم باب الضنى، ثم باب الموت.

ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب: وهي باب العاذل، ثم باب الرقيب، ثم باب الواشي، ثم باب الهجر، ثم باب البين، ثم باب السلو.

من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر، وهما باب العاذل وضده باب الصديق المساعد، وباب الهجر وضده باب الوصل. ومنها أربعة أبواب لا ضد لها من معاني الحب، وهي باب الرقيب، وباب الواشي، ولا ضد لهما إلا ارتفاعهما.

وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول، وإن كان المتكلمون قد اختلفوا في ذلك. ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه.

وباب البين وضده تصاقب الديار، وليس التصاقب من معاني الحب التي نتكلم فيها. وباب السلو وضده الحب بعينه، إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه.

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة، وهما: باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف، ليكون خاتمة إيرادنا وآخرَ كلامنا الحضُّ على طاعة الله عزّ وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك مفترض على كل مؤمن؟»

يقول ابن حزم إن صور الحب كثيرة: من الحب الإلهي إلى الهوى الذي يقصد به المتاع والمسرة، ويقول إن أحداً لا يسلم من مس الهوى، سواء أكان من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين، أم من كبار الرجال ودعائم الدول، أم من الصالحين والفقهاء.

أما تعريف الهوى في رأي ابن حزم فهو: «اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، والشكل دأباً يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير شاهد..

ولو كان علة الحب حُسن الصورة الجسدية لوجب ألاّ يستحسن الأنقص من الصورة».

ويقول ابن حزم إن أهم علامات الحب هي «إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع، وهي المنقبة عن سرائرها والمعبّرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها..».

وبين الأسباب التي ينجم عنها الحب (كالرؤية في النوم أو سماع الوصف وما إلى ذلك)، واحدة ذات وقع شديد على المحب: هي الحب من نظرة واحدة. ثم يعقد فصلا عمّن «أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها» يذكر فيه أن «للحب حُكماً على النفوس ماضياً، وسلطاناً قاضياً، وأمراً لا يخالف، وحدّاً لا يعصى، ومُلكاً لا يُتعدى، وطاعة لا تصرف، ونفاذاً لا يرد، وأنه ينقضِ المررَ، ويَحُل المبرَم، ويحلل الجامد، ويُخل الثابت، ويَحل الشغاف، ويُحل الممنوع». ثم يحللِ غرائب المحبين ويقولَ: «لقد شاهدت كثيراً من الناس لا يتهمون في تمييزهم، ولا يخالف عليهم سقوط في معرفتهم ولا اختلال بحسن اختيارِهم ولا تقصير في حَدْسهم، قد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم ما ليس بمستحسن عند الناس ولا يُرَضى في الجمال، فصارت هجيراهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم. ثم مضى أولئك إما بسلوٍّ أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب، وما فارقهمْ استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها». ومضى يحلل عشق الناس لهذه الصفات الخاصة، حتى الشائه منها، ويقول: «وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر فما أحب طويلة بعد هذا»، ثم يقول: «دعنيَ أخبرك: إني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه»، «وأما جماعة خلفاء بني مروان، رحمهم الله، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ولا يختلف في ذلك منهما مختلف». ثم يقول أبو محمد في (باب الوصل): «.. ولقد جربت اللذات على تصرفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها، فما للدنو من السلطان، ولا المال المستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمن بعد الخوف، ولا التروح على المال، من الموقع في النفس ما للوصل، لا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتنصرم نار الرجاء. وما أصناف النبات بعد غبّ القطر، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحابَ الساريات في الزمان السجسج، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقن بها الرياض الخضر بأحسن من وصل

حبيب قد رُضيتْ أخلاقه وحُمدتْ غرائزه وتقابلتْ في الحسن أوصافه..».

ويذكر ابن حزم صوراً متعددة للهوى العذري، والحب في هذه الصور كلها إنما هو عاطفة نبيلة رفيعة. ويقول إن هنا وجوها كثيرة للقنوع بالحب، منها الاطمئنان على سلامة الحبيب، ويقول حيناً: «ومما يدخل في هذا الباب شيء رأيته ورآه غيري معي، أن رجلاً من إخواني جرحه من كان يحبه بمدية، فلقد رأيته يقبّل مكان الجرح ويندُبه مرة بعد مرة». ويذكر حيناً آخر كيف يقتنع المحب بتقبيل التراب الذي وطئه قدم الحبيب، ويقول: «وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان غاية في الجمال، فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً وامرأة خلفه تنظر إليه، فلما أبعد أتت إلى المكان الذي قد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الأرض التي فيها أثر رجله».

ثم يقول إن «مزار الطيف» في النوم هو الدواء والشفاء لكل محب مهجور قد تطاول غمه، أو لمن عدا عادى المنون على محبه، فإذا كان راضياً عنا زارنا طيفه في النوم. ومزار الطيف – على قصر مداه ووقوعه في جانب الوهم – إنما هو شيء يخصنا، وعن طريقه نرى من غالهم الموت ممن نحب، ونستعيد لذاذات العيش التي ذهبت بها صروف الزمان، ويخيل إلينا أننا لا ننسى أن مَن نحب قد مضى وواراه التراب.

ومن أحسن فصول الكتاب إبداعاً الفصل الذي يدور حلو السلوّ، فهو يصور لنا الموت القاسي الذي لا يرد في صورة هي أقوى من الحب نفسه. والسلو أمر يُعاتب فيه أو يُصفح عنه حسب أسبابه، فإذا كان سببه الإعراض ومجرد الرغبة في التبديل فهو مذموم مستنكر، وأما إذا كان سببه الفراق الذي لا حيلة فيه أو البعد المحتوم عن الحبيب (كما حدث لابن حزم في هواه بإنسانة مجهولة) أو جفوة الحبيبة أو خيانتها، فلا لوم فيه.

ويروي ابن حزم حكايات كثيرة عن الشهادة في سبيل الهوى، فيذكر لنا أخبار ناس ماتوا إذ فقدوا الحبيب، أو لأنهم لم يستطيعوا البوح بما ضمته جوانحهم. ومن أغرب هذه الحكايات قصة رجل أندلسي «باع جارية كان يجد بها وجداً شديداً لفاقة أصابته من رجل من أهل ذلك البلد، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع. فلما حصلت عند المشترى كادت نفس الأندلسي تخرج، فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكمه في ماله أجمع وفي نفسه، فأبى عليه. فتحمل عليه بأهل البلد، فلم يسعف منهم أحداً، فكاد عقله أن يذهب، ورأى أن يتصدى إلى الملك. فتعرض له وصاح، فسمعه فأمر بإدخاله، والملك قاعد في علية له مشرفة عالية، فوصل إليه فلما مثلَ بين يديه أخبره بقصته واسترحمه وتضرع إليه، فرقَ له الملك فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر، فقال له «هذا رجل غريب وهو كما تراه، وأنا شفيعه إليك» فأبى المبتاعُ وقال: «أنا أشد حبّاً لها منه، وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا في أسوأ من حالته»، فرام به الملك ومن حواليه من أموالهم فأبى، ولج واعتذر بمحبته لها. فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحاً إلى الأسعاف قال الأندلسي: «يا هذا، ما لك بيدي أكثر مما ترى، وقد جهدت لك بأبلغ سعي، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك، وأنه يخشى على نفسه شراً مما أنت فيه، فاصبر لما قضى الله عليك». فقال له الأندلسي: «فما لي بيدك حيلة؟» فقال له: «وهل ها هنا غير الرغبة والبذل؟ ما أستطيع لك أكثر». فلما يئس الأندلسي منها جمع يديه ورجليه وانصبَّ من أعلى العلية إلى الأرض، فارتاع الملك وصرخ فابتدر إليه الغلمان من أسفل، فقضي أنه لم يتأذ في ذلك الوقوع كبير أذى، فصُعد به إلى الملك فقال له: «ماذا أردت بهذا؟» فقال له: «أيها الملك، لا سبيل لي إلى الحياة بعدها»، ثم همَّ أن يرمي نفسه ثانية فمُنع، فقال الملك: «الله أكبر، قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة». ثم التفت إلى

المشتري فقال له: «يا هذا، إنك ذكرت أنك أودُّ لها منه، وتخاف أن تصير في مثل حاله» فقال: «نعم». قال: «فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لو لا أن الله عز وجل وقاه، وأنت قم فصحح حبك وترامَ مِن أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك، فإن متَّ فبأجلك وإن عشت كنت أولى بالجارية، إذ هي في يدك، ويمضي صاحبك عنك. وإن أبيت نزعت هذه الجارية منك رغماً ودفعتها إليه». فتمنع ثم قال: «أترامى!»، فلما قرب من الباب ونظر إلى الهَوِيّ تحته رجع القهقرى، فقال له الملك: «هو والله ما قلت». فهمَّ ثم نكل، فلما لم يُقدم قال له الملك: «لا تتلاعب بنا. يا غلمان! خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض» فلما رأى العزيمة قال: «أيها الملك، قد طابت نفسي بالجارية»، فقال له: «جزاك الله خيراً»، فاشتراها منه ودفعها إلى صاحبها وانصرفا».

وهذا نموذج آخر من الكتاب، وهو من باب (طي السر) يقول فيه ابن حزم: «من بعض صفات الحب الكتمان باللسان، وجحود المحب إن سئل، والتصنع بإظهار الصبر، وأن يرى أنه هزهاة خلى. ويأبى السر الدقيق ونار الكلف المتأججة في الضلوع إلا ظهوراً في الحركات والعين، ودبيباً كدبيب النار في الفحم، والماء في يبس المدر. وقد يمكن التموه في أول الأمر على غير ذي الحس اللطيف، وأما بعد استحكامه فمحال. وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنه يزعمه من صفات أهل البطالة، فيفر منه ويتفادى عنه. وما هذا وجه التصحيح؛ فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل، التي يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن، وتمكن الحب، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقابلها، ولا يلزمها غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين؛ وأما المحبة فخلقه، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة. وفي ذلك أقول:

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى
وسيان عندي منك لاح وساكت

يقولون: جانبت التصون جملة
وأنت عليم بالشريعة قانت

فقلت لهم: هذا الرياءُ بعينه
صُراحاً وزِيٌّ للمرائين ماقت

متى جاء تحريم الهوى عن محمد
وهل منْعُهُ في محكم الذكر ثابت؟

إذا لم أواقع مَحْرَماً أتقى به
مجيئىَ يوم البعث والوجه باهت

فلست أبالي في الهوى قول لائم
سواء لعمري جاهر أو مخافت

وهل يلزم الإنسان إلاّ اختياره
وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت؟؟

«وإنني لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا، فكنَّ الوجد بين جوانحه، مرام جحده، إلى أن غلظ الأمر، وعَرف ذلك في شمائله مَن تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض، وكان من عرض له بشيء نجهه وقبحه، إلى أن كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه في إنكاره، وتكذيب من ظن به غير ذلك، فسر بهذا. ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما في ضميره وهو ينتفي غاية الانتفاء. إذ اجتاز بهما الشخص الذي كان يتهم بعلاقته. فما هو إلاَّ أن وقعت عينه على محبوبه، حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى واصفر لونه. وتفاوتت معاني كلامه بعد حسن

تثقيف، فقط كلامه المتكلم معه. فقد استدعى ما كان فيه من ذكره. فقيل له: ما عدا عما بدا. فقال: هو ما تظنون. عَذَر مَن عذر. وعَذَل مَن عذل..».

وكتاب ابن حزم هذا يقدم لنا تفاصيل عظيمة القيمة عن حياة الأندلسيين في بيوتهم خلال القرن الحادي عشر، فهو يصور لنا المآسي التي كانت تحدث في بيوت المساتير خفية تحت سُتُر شتى على أيدي «بعض صنوف النساء، كالطبيبة والحجامة والسرافة والدلالة والماشطة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصَّناع في المغزل والمنسج وما أشبه ذلك».

ويحدثنا بقصص المحبين ذوي الحيلة والابتكار أو المستهترين والأنذال، ويذكر كيف أن سيدة من شريفات أهل قرطبة قضت ليلة كاملة متدثرة بملابس بعلها المتوفى، ويحدثنا عن المنصور بن أبي عامر في علاقاته بمن كان يهوى من النساء، فيذكر أنه كان ملولاً من النساء «يرى الجارية فلا يصبر عنها، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي عليه، حتى يملكها. فإذا أيقن بتصيُّرها إليها عادت المحبةُ نفاراً، وذلك الأنسُ شروداً، والقلقُ إليها قلقاً منها، ونزاعُه نحوها نزاعاً منها، فيبيعها بأوكس الأثمان. هذا كان أكثر دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً... ولقد مات من محبته جوار كن علَّقن أوهامهن به، فخانهن فيما أمَّلنه منهُ فصرن رهائنَ البلى وقتلهن الوجد».

ويروي لنا كذلك كثيراً من مآسي المروانيين (بني أمية) ويذكر كيف أن بعضهم قضى نحبه شهيد الهوى. والكتاب إلى ذلك حافل بالمعلومات القيمة عن حياة ابن حزم نفسه، نتعرف منها شيئاً من أخلاقه وما عرض له من الحب، ونلم بالكثير عن أصحابه ووقائع حياته السياسية. كل هذا يضمه (طوق الحمامة) إلى جانب تحليل عاطفة الحب وما يتصل بها تحليلاً نفسياً لطيفاً، فضلاً عمّا يضمه الكتاب من مقطعات شعر ابن حزم الجميل.

## مدرسة ابن حزم

ولم تلبث طريقة ابن حزم - بعد تطبيقها على علوم الدين والفقه - أن أصبحت مذهباً قائماً بذاته حل محل المذهب الظاهري، وكوّن أتباعه فرقة عرفت (بالحزمية). نذكر من رجالها ممن أخذ عن ابن حزم مباشرة صاعداً الطليطلي، وأبا محمد بن العربي والد الفقيه المعروف أبي بكر محي الدين بن العربي.

وقد انتقل مذهب ابن حزم إلى المشرق وذاع بين أهله، وأثنى أبو حامد الغزالي على بعض كتبه. واختصه الجغرافي المؤرخ ياقوت الحموي بترجمة طويلة وانية.

أما في المغرب والأندلس، فإننا نجد طائفة كبيرة من المؤلفين، حملت مؤلفاتهم طابع (المذهب الحزمي) ومن أولئك محمد الأنصاري الحَوْدي، وأبو بكر ابن باشر الأنصاري، وغيرهما.

وقد مال محمد بن تومرت، مهدي الموحدين، إلى مذهب ابن حزم، إذ وجد فيه ما يؤيد دعوته، ووصل نفرٌ من فقهاء الحزمية إلى أرفع المناصب، ومن أتباع المذهب الحزمي، أو الآخذين بجانب منه، محيي الدين بن عربي، والفيلسوف ابن رشد.

وقد أسرع المذهب الحزمي إلى الزوال، بعد انقضاء أمر الموحدين، ولم نعد نجد من أتباعه إلاَّ عدداً قليلاً من الناس.




# نجوى..

شعر: د. سعاد الصباح

يـا أمـيري أنـتَ يـا أطـــ ـــهَرُ مِـــن طـــينِ البَشَـــر

أنـــتَ يـــا نفحـــة نـــورٍ مِـــن إلـــهٍ مُقتَـــدِر

يـــا ملاكـــاً ســـاحرَ الطَلـــ ـــعَةِ فتـــانَ الغُـــرَر

يـــا سمـــاءً تـــزرَعُ الخُضـــ ـــرَةَ في قلـــبِ الحَجَـــر

أنـــا مِـــن حُبِّـــكَ أُخفـــي عنـــكَ آلافَ الفِكَـــر

في ثَنايـــا كبريـــاءٍ وحَيـــاءٍ وخَفَـــر

كُلَّمـــا ناجـــاكَ شِـــعري بِحَـــنينٍ مُســـتَعِر

ذابَـــتِ الأبيـــاتُ في ثَغـــ ـــرِيَ والتـــاع الـــوَتَر







كـلُّ شـيءٍ فيـكَ حتَّـى الـ ـــنارُ حُلـوٌ في السِـير
أشـعِلِ السـيجارَةَ الحَسـ ـــناءَ يُلـهِبُني الشَـرَر
وامـلـءِ الجَـوَّ دُخانـاً ثُـمَّ دعـهُ يَنتَشِـر
إنَّـهُ يمـلءُ إحسـا سـي بإنصـافِ القَـدَر
إنَّـهُ يلمـسُ أعصـا بـي بِتَيّـارِ الخَـدَر
إنَّـهُ خَمـري وكاسـا تـي إذا القَلـبُ سَـكِر
إنَّـهُ يكتُـبُ لـي في حُبِّنـا أحلـى السُـوَر
إنَّـهُ شَـلاّلُ ألـوا نٍ وأضـواءٍ عَطِـر
إنَّـهُ في جَـدبِ أيّـا مـي كَرَشّـاتِ المَطـر
تُنبِـتُ الشـوقَ ولا تُبـ ـقي مِـنَ الشَـجوِ أثـر
إنَّـهُ يرسُـمُ لـي الفر دوسَ في أبهـى الصُـور
يـا أمـيري إنَّ حُبّـي لـكَ طِفـلٌ في الصِـغَر
كُلَّمـا أشـبعتَهُ وصـ ـلا تـرى الطِفـلَ كَبـر




# خطاب مفتوح إلى الشباب الذي لا يقرأ

بقلم: طاهر زغيبي

"... أنت لا تقرأ أي كتاب يا بني..! وأنت فخور بذلك..!! وتقول: لماذا أُظهر نفسي بأني معني بما يضايقني.. إن ما أحبه حقاً هو "لعب التنس" ومشاهدة مباراة في كرة القدم والتنزه بصحبة فتاة. تلك هي متعتي، والحياة ليست طويلة حتى أضيعها في القراءة والبحث.. وأبعثر لحظاتي على هذا النحو..

وبعد فما هي تلك السعادة التي يمكن أن يقدمها الكتاب إليّ..؟ ماذا يمكن أن يقدم الكتاب إليك؟ إنه خليق أن يقدم إليك الكثير، بل أكثر بكثير مما تظن.. إنك يا صديقي قوي سليم البدن، وأنت في سن العشرين، جذاب، ووسيم، تعجب النساء.. وقد سارت حياتك رغداً حتى الآن ولكن لا تحسب يا بني أن الأمور ستظل دائماً على هذا النحو والحياة تبدو لك اليوم بسيطة هينة، ولكن في الواقع ما من حياة تظل دائماً على هذا النحو. وقريباً سوف ترى بعيني راسك أن الصعوبات والمتاعب راحت تعترض طريقك، سوف يصيبك المرض، والمرأة التي كنت تعتقد أنها تحبك قد تتخلى عنك، وتهجرك إلى فتى آخر فتصبح عندئذ كئيباً غيوراً مثقلاً بالهموم والقلق ويكون تفكيرك في حالك مؤلماً أيضاً لأنك أهملت نفسك، فعلاها الصدأ..

وصدقني إن قلت لك: إنك لو كنت قرأت الكثير واستوعبت ما في بطون الكتب لكان لك الآن منه نعم العوم ونعم الناصح ونعم الصديق لأنك من الكتب تعرف أن كل الناس قاسوا نفس العذاب، وأن الكثيرين منهم قد خرجوا من مثل هذه المحنة أقوياء مرفوعي الرأس، موفوري الكرامة.

في وسع الإنسان يا صديقي أن يعمل ليتعلم كل شيء، وأنت تعرف ذلك حق المعرفة، وقد عميت حتى تعلمت فن مهنتك وقد تدربت

حتى أصبحت ماهراً في لعبة التنس.. أفلا تريد إذن أن تتدرب على فن الحياة..

في وسعك أن تتعلم هذا أيضاً، عندئذ ستعرف الناس بمشاعرهم وتجاربهم، وأفكارهم وهذا ما تقدمه لك الكتب، فلا تقولنَّ بعد ذلك في زهو وفخار إني لا أقرأ قط.. فهذا منك سفهٌ وغلظةٌ".

(أندره موروا)

تعقيباً على ما جاء في خطاب السيد "موروا" أؤكد بأن ما ورد في ذاك الخطاب لا شك فيه ولا لبس أو جدل، وهو يعكس الصورة الحقيقية لأولئك الشباب الذين ابتلوا بالعزوف عن القراءة، زاعمين بأن هذه المادة لا تعود عليهم بأية فائدة أو متعة إذا ما قورنت بالممارسات الأخرى لبعض التسليات، وأن ما يقدمه الكتاب لا يؤمن بها أولئك الشباب، وبالرغم من مزاعم هؤلاء فالسيد موروا لا يخفي في خطابه الفوائد الكبرى والهامة التي يقدمها الكتاب.

إنني أستميح السيد موروا العذر بأن أضيف إلى ما ورد في خطابه هو تأكيده لأهمية القراءة ودورها الأساسي في تكوين شخصية الفرد في المجتمع وما تعكسه القراءة على حياته وهذا ما تؤكده الكلمة المأثورة للمعلم الأول للفيلسوف أرسطو عندما سأله أحدهم كيف تقيم الإنسان أجاب السائل كم كتاباً قرأ ذلك الفرد وماذا يقرأ؟

هذا من حيث أهمية الكتاب وتقييمه للفرد، أما من حيث المتعة التي تعكسها القراءة للفرد فإنني أستشهد بقول أحد محدثي الكاتب الشهير (مارك توين بقوله): "أتمنى أن أكون قد خسرت عشر دولارات يا سيد توين ولم أكن قد قرأت كتابك (هلكبرنج فن) فذهل توين وفوجئ! لكن محدثه استطرد قائلاً: وذلك كي أستطيع أن أحس بالمتعة البالغة مرة أخرى التي أحسست بها عند قراءتي الأولى".

أما الشاعر الفرنسي الكبير (فولتير) فقد أعطى للكتاب أهمية وقيمة تفوق حد الوصف وذلك في جوابه لأحد محدثيه عمن سيقود الجنس البشري؟ أجابه فولتير: "أولئك الذين يقرؤون".

إن أهمية القراءة بل المطالعة لا تقف عند هذا الحد، بل تتعدى إلى أبعد من ذلك ليصبح لها دور أساسي في العلاقة بينها وبين الشعر، وذلك بحسب ما ورد على لسان أحد الكتاب، حيث قال: "إذا توقف الكاتب عن القراءة والمتابعة الدائمة للشعر مثلاً، فسيؤدي به حتماً إلى التكرار والإعادة، وعدم القدرة على إضافة أي جديد إلى شعره.. فالقراءة تصقل الأسلوب، وتحفز المشاعر، وتدفع المخيلة للإنعتاق، والبحث عن صورة جديدة ومختلفة عن السابق.. فإذا لم نرفد الذهن بالقراءة، فإنه من الطبيعي أن تتراجع المخيلة وتندحر.

إنني أتوقف هنا لأقول، وبكل أسف، إن استطلاعاً أجرته منظمة (اليونسكو) عام ٢٠٠٣ أظهرَ بأن العرب يأتون في مؤخرة العالم بالقراءة. وبالعودة إلى ما جاء في خطاب السيد (موروا) حيث خاطب فيه ذاك الشاب بقوله له: "إنك يا عزيزي لو لم تتعلم ممارسات تلك التسليّات التي أتقنتها لما انعكست عليك متعتها وملذاتها الآنية والزائلة، فلو تعلمت مهنة القراءة لكنت أحسست بمتعة تفوق بالكثر الكثير من تلك التي استمتعت بها من غيرها ولظللت بالتالي تستمتع بها ما دمت حياً".

لقد استوقفتني كلمة (لو تعلمت) للسيد موروا في خطابه إلى ذاك الشاب لكن ذاك

التعليم لم حصل وللأسف الشديد. من هنا يكمن السبب في عزوف هؤلاء الشباب عن القراءة ذلك لأن مادة القراءة يجب الإعداد لها منذ مراحل الطفولة الأولى، ولأن هذه المادة في نظر السيد موروا وأرسطو وغيرهما ممن ورد ذكرهم آنفاً هي العامل الأساسي والهام في تكوين ثقافة الفرد وشحذ عقله، كما أنها تأتي الرديف الأهم للدراسة المدرسية النظامية بكل مراحلها. والمدرسة لا تتحمل وحدها عبء المسؤولية، بل يجب على الأهل تحمل الجانب الأكبر منها، لكنهم وللأسف لا يهتمون إلاّ بالتفوق الدراسي لأبنائهم، في حين أن ذاك التفوق في الحياة الحديثة لا يتحقق إلاّ بالقراءة المستمرة والتي تصبح يوماً ما جزءاً لا يتجزأ من شخصية الفرد في الحياة الحديثة والتي منها نأخذ العلم الذي تكمن فيه القيمة الإنسانية والأساسية، وأن مفتاح هذا العلم هو الكتاب بكلماته المطبوعة، لها ميزاتها الخاصة، فهي تثري الخيال، والخيال منبع الإبداع كما أنها توفر للقارئ حرية اختيار الموضوع والزمان والمكان وتسهل عليه الرجوع للكتاب عند اللزوم كما أن فيها تقويماً للغة القارئ وإثراءاً بمفرداته اللغوية وتدريبه على حسن التعبير في الكتابة وصياغة الإنشاء. وهنا لا بد لي أن أنوه بأن من أسباب ضعف الإقبال على القراءة الوضع العائلي، كأن يكون الأبوان غير قارئين أو أن يكون المعلم قاسياً خاوياً أو مملاً، أو أن تكون طرق التدريس في المناهج تتبع أسلوب التلقين أو اعتماد الأساتذة على إعطاء الملخصات مما يلغي الكتاب.

### كيف نعوّد شبابنا على القراءة أو ما نسميها المطالعة؟

إنني ومن خلال ملاحظاتي وتجربتي، أرى العودة إلى العقود السابقة من القرن الماضي وتحديداً الأربعينيا منه، حيث كانت مادة المطالعة مقررة بدءاً من المرحلة الابتدائية، والتي أفرزت لها حصة كأي مادة من مواد المنهاج، لقد كان أستاذ تلك المادة يطلب إلى تلامذته اختيار قصة تتناسب ومواهبهم، وربما اختار هو القصص المناسبة لمستواهم، ثم يكلفهم بقراءتها وتلخيصها بطريقتهم الخاصة.

وفي الحصة المقبلة يستجوبهم فيها بحسب ما يتسع له الوقت، ويطالب كلاً منهم بسرد القصة التي اختارها. ولا يفوت المعلم أن يقوم بمساعدة تلامذته ويصحح لهم ما يجب تصحيحه من أخطاء، وأن يقوم بتوجيه بعض الأسئلة التي تدور حولها وأن يسأل التلاميذ عن المغزى التي استخلصه. وهكذا يتدرج التلاميذ في صفوفهم العليا مع تدرجهم على قراءة القصص التي تتلاءم وصفوفهم. متبعاً أستاذهم الأسلوب نفسه في الصفوف السابقة وحتى ختام المرحلة الإعدادية.

ولن تنتهي تلك المرحلة إلاّ ويكون طلابها قد أتوا على قراءة ما لا يقل عن ثلاثين قصةً وكتاباً، أما في المرحلة الثانوية حيث تكون المواد أصبحت أكثر كثافة وأنها تستنفذ وقتاً طويلاً فإن طلاب تلك المرحلة بالرغم من ذلك كانوا يختلسون الوقت لإشباع نهمهم من المطالعة التي استمرؤوا طعمها وأصبحت جزءاً من حياتهم.

لم تتوقف مهمة المعلم والأستاذ عند هذا الحد، بل تعدتها إلى ما هو أهم وأعم فائدة لقد كان يتوجب على الطالب المكلف قراءة النص قراءة صحيحة وسليمة، بما معناه مراعاة الأداء والتقيد بعلامات التنقيط وضبط الكلمات بالحركات، متجنباً قدر الإمكان الوقوع في اللحن. وهنا أستذكر نصيحة كان قد أسداها إلينا أستاذ الأدب العربي يوم ذاك المرحوم الأديب رئيف خوري وشدد عليها بقوله: "لكي نتجنب الوقوع بالأخطاء اللغوية، فإني أنصحكم بقراءة القرآن ونهج البلاغة، وكتاب كليلة ودمنة. هذه الكتب المضبوطة حركاتها، فتأكدوا يا أعزائي بأن قراءتكم تصبح سليمة، خالية من ارتكاب أي خطأ لغوي.."، ولا تزال وبعد مرور ما يقارب الستين عاماً، صدى كلماته يرنّ صداه في أذني.

كما أنه كان يجب عليه التقيد التام باللهجة الملائمة عند الإلقاء، ليأتي المعنى المقصود بشكل واضح، وعلى الطالب أيضاً أن يراعي ظروف المناسبة، فالتهاني يختلف أداؤها عن الرثاء والمدح يختلف أداؤه عن القدح أو الذم، وقس على ذلك فعلى الطالب أن يؤدي اللهجة التي تلائم تلك المناسبات.. كل ذلك يأتي مدعوماً بإرشادات وتوجيهات الأستاذ المختص.

هذا ما كان يوليه أستاذ المادة في السنوات الأخيرة من المرحلة الأساسية، أما في المرحلة الثانوية، فالوضع مختلف تماماً فلقد كان مدرس مادة اللغة العربية أم الفرنسية، يقوم باختيار موضوعاً أدبياً عن أحد الشعراء، ثم يختار أحد الطلاب لمعالجته والتوسع فيه من جميع جوانبه، وبعد ذلك يقوم الأستاذ بتحديد أحد أيام العطلة، حيث يحضر فيه طلاب الصحف وبحضور الهيئة التعليمية، يلقي الطالب الموضوع المحدد له كما لو أنه يلقي محاضرة وبعد الفراغ من إلقائه، تنهال عليه الأسئلة من بعض الأساتذة ذوي الاختصاص، ولا يخلو هناك من نقدٍ حول كل ما يتعلق بالموضوع.

هذا ما كان أساتذتنا يمارسونه مع طلاب الصفين الأول والثاني الثانوي باستثناء الصف الثالث الثانوي بسبب كثافة المواد.

باعتقادي أن هذا الأسلوب، وهذه الطريقة تكسب الطالب الجرأة وتعينه على إبراز شخصيته في المجتمع، ويتعود على حسن الإلقاء، وتأدية الأفكار الصحيحة بأسلوبها الصحيح.

ليت أن القائمين على التعليم في قطرنا الحبيب، وعلى رأسهم السيد الوزير أن يحذوا حذو أولئك المدرسين ويعملوا على تطبيقها لما لها من فائدة في حياة الطالب المدرسية والاجتماعية على حد سواء.

هذا ما ألفته عندما كنت طالباً فتعلمت أن أقرأ وأطالع وبشوق كبير وبشغف عارم دون أن أشعر بأي ملل أو كلل، تحفزني على ذلك المتعة الزائدة التي انعكست عليّ من تلك العادة التي ألفتها وتعلمتها ونشأت عليها.

إنني، إنصافاً مني لهؤلاء الشباب الذين عزفوا عن القراءة، أعطيهم بعض العذر لأنهم لم يجدوا من يعلمهم الطريقة التي تعوّدهم على القراءة، ظناً منهم بأن هذه المادة إنما تأتي

بالفطرة أو الوراثة أو بالسليقة، وليس بالتعلم كما أسلفت. وإذا كان هنا أشخاص لم يحالفهم الحظ في التعود على القراءة، ولم يتعلموها فليوطِّنوا أنفسهم عليها شريطة أن يكونوا متمتعين بإرادة قوية – وصاحب الإرادة باستطاعته التغلب على كل الصعاب – وأخص بالذكر أولئك الذين بلغت عندهم سن الشيخوخة ذروتها، ولم يبق أمامهم ما يمكنهم من القيام بأي عمل. عندئذ تصبح المطالعة مادة ضرورية لهم ويصبح الكتاب بالنسبة إليهم خير جليس وخير أنيس وأوفى صديق.

أما أن تصبح مادة القراءة مادةً أساسية في المنهاج، فربما تذرع السادة المسؤولون بالقول: "إنه لا يوجد هناك في المنهاج أي شاغر يسمح لهم بإضافة تلك المادة.." ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن هناك موادّ خصص لكل منها حصتان في الأسبوع وليست على قدر الأهمية كمادة القراءة، نعدد منها، مادة الرسم، الرياضة والموسيقا.. فلو اكتفينا بحصة واحدة من الرسم على سبيل المثال، وبحصة واحدة من الرياضة وبأخرى من الموسيقا، وأعطينا حصتين لمادة القراءة اسبوعياً لكانت انحلت المشكلة لتلك المادة، ولكنّا أعطيناها حقها وأنصفناها كونها مادة أساسية. خلافاً لتلك المواد الثلاث التي ذكرتها.

ولنفترض جدلاً، أن أصوات أساتذة المواد الثلاث المذكورة قد تعالت احتجاجاً على تخفيض نصاب موادهم – وقد لا يكون هنا أي مانع من حدوث ذلك – ففي هذه الحال يبقى الحل الأصح والأمثل، لتثبيت تلك المادة، هو الإبقاء على حصص المواد الأساسية الواردة في المنهاج بدون أي تعديل، شريطة اتباع الطريقة المثلى للمطالعة، كأن تخصص حصة هذه المادة مرّة للقراءة الجهرية بلهجة إلقائية مميزة، وتارة أخرى تتبع فيها القراءة الصامتة، على أن يكلف الطالب بسرد ما استوعبه على مسامع زملائه.

إنني، وقبل أن أختم لا بد لي من أن أوجه خطابي إلى الأهل في البيت ولا سيّما إلى أولئك الذين يقرؤون، وأخص بالذكر منهم الأمهات المتعلمات، كي يأخذنَ دورهن الرديف للمدرسة ليس فقط في غرس مادة القراءة في نفوس أطفالهنّ، بل وفي تحفيظ دروسهم ومناقشتهم في كل ما يتعلق بتلك الدروس وهذا لا يساعدهم على إبراز قدراتهم وتمكينهم من التفوق على أقرانهم فحسب، بل وفي حياتهم المستقبلية.. وهذا ما نلاحظه في أبناء الأطباء والمهندسين والمعلمين الذين بفضل ما أولوه لأبنائهم من عناية واهتمام مكّنتهم من التفوق على أقرانهم في جميع مناحي الحياة.

كل ما أتمناه أن يلاقي هذا المقال صداه لا سيمّا لدى أولي الأمر والمعنيين والمسؤولين في الوزارة وبخاصة السيد وزير التربية الذي يولي هذا القطاع التربوي اهتماماً بالغاً، وأن تتضافر جهود الجميع للتغلب على هذه الظاهرة الخطرة التي تهدد المجتمع، وأن نرفع شعار (الكتاب مفتاح العلم) إذ بفضل العلم تنهض الأمم والشعوب وتزدهر.




# يا حاديَ العيسِ

شعر: عصام شعبان

يــا حــادي عــيسٍ شــاقهُ القَمَــرِيُّ

مِــلْ بــي إلــيهِم فــالهوى عُــذْرِيُّ

وأنــخْ رِحالــكَ عِنْــدَ بِـيضِ ظِبـائِهِمْ

واسْـــتَفْتِهِمْ أيُّ اللَّمـــى خَمْــرِيُّ؟!

مُتَرَفِّعــاً عَــنْ كُــلِّ خِــبٍّ في الهَـوى

مــا جــازَ يَومــاً عامُــهُ الهجــريُّ

أظِبــاؤُهم! مــا شــابَهَتْكِ ظِباؤنــا

ومهاتنــا مــا رَمشُــكِ الحُــوريُّ!

عُــجْ بــي إلــيهِمْ نَقْتَــبسْ مِــنْ حُسْــنِهِمْ

ونَزِيــدُ عِطْــراً فالصِّــبا زَهْــرِيُّ

* * * *

تَفتَــرُّ عَــنْ ألْمــي مَهــاةٌ غَضّــةٌ

ثمَــلُ القُلــوبِ رِضــابُها السُّــكْرِيُّ

والكَوكــبُ الــدَّوّارُ عِنْــدَ نُهودِهــا

وَيَفِــيضُ حُسْــناً ثَغْرُهــا النّــورِيُّ







رَشَــاٌ لَــهُ بَــينَ القلــوبِ تَــدَلّلٌ
يَمْشــي الهُوَينــا عُمْــرُهُ الشَّــهْرِيٌّ
تَرْمِيْــكَ سَــهْماً مِــنْ كِنانَــةِ طَرْفِهــا
رَمْــقَ الغَوِيَّــةِ لَحْظهــا السِّــحْرِيُّ

* * * *

وَترِيــكَ غُصْــناً في طَــلاوَةُ قَــدِّها
يَهْتَــزٌّ مِنهــا نهْــدُها البكْــرِيُّ
والفَــرْعُ مِنْهــا كالغُــدافِ ووَجْهُهــا
نُــورُ الصَّــباحِ وَطَلْعُهــا القَمَــرِيُّ

* * * *

وَمُســائلٌ عَنْهــا فَقيــلَ مَقامُهــا
مِصْــرُ العُــلا إنَّ الحِمــى مِصْــرِيُّ
خُــذْها إلَيــكَ مِــنَ السُّــتورِ يَزِينُهــا
تَرْبيعُهــا مــا عُمْرُهــا العشْــرِيُّ
فلَقَــدْ ظَفَــرْتَ بِلثمَــةٍ مِــنْ ثَغْرِهــا
عَسَــلٌ تَمَــوَّزَ والرّحِيْــقُ تَــرِيُّ
طُــوبى لَكُــمْ يــا مَــنْ حَللْــتُمْ سِــترَها
نَشْــرُ القَرَنْفُــلِ رِيحُهــا العِطْــرِيُّ
خُــذْها لَكُــمْ غَيْــداءَ تَرْفُــلُ حُــرَّةً
نَجْدِيَّــةً شَــوقي لَهــا فِطْــرِيُّ
فــإذا لَحــاني في هَواهــا عــاذِلي
قُلْــتُ: اتَّئِــد،إنَّ الهَــوى عُــذْرِيُّ




# مها فائق العطّار

# الأديبة

# العصاميّة

# المجدّة




الدكتورة مها فائق العطّار باحثة، وناقدة وأديبة عصاميّة مجدّة.. وكاتبة بارعة للسير الذاتية وأستاذة جامعية.. ولدت في التاسع من أيار عام ١٩٣١ في دمشق من أبوين متفاهمين ومنسجمين هما: الطبيب الجرّاح فائق العطّار والسيّدة مسرة العظم..

تزوّجت في أواخر عام ١٩٤٥ من ابن عمتها الطبيب شوكة السقطي، وهي في الرابعة عشرة من عمرها قبل أن تنال الشهادة الإعدادية. وسافرت معه إلى مقر عمله في «معرة النعمان» و«الباب» ولكنها رغم تركها الدراسة النظامية، فإنها لم تترك المطالعة، فكانت تقرأ باستمرار وتكتب وتتابع تعلم اللغات الأجنبية كالفرنسية والإسبانية والإنكليزية والألمانية.. ثم عاودها الحنين إلى الدراسة النظامية بعد عشرين عاماً، فانكبت على دراسة الشهادة الإعدادية لكي تتابع دراستها العالية.. وتستطيع أن تجاري أولادها الأربعة الذين سبقوها في دراستهم!..

في عام ١٩٧١ نالت الشهادة الثانوية وهي في الأربعين من عمرها، وكان دخولها قسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة دمشق بمنزلة مكافأة لها على جهودها الدراسية.. ودخولها هذا الاختصاص الذي أحبته منذ طفولتها.. داومت على الجامعة وكلها أمل وتفاؤل بالمستقبل. والتزمت بحضور جميع المحاضرات دون استثناء.. وعاشت طالبة مراهقة تتعامل مع زميلاتها كأية طالبة.

كما تناقش أساتذتها في الأفكار التي تؤمن بها، حتى نالت الليسانس في اللغة العربية وآدابها عام ١٩٧٥، ودبلوم الدراسات الأدبية العليا عام ١٩٧٧، والماجستير في الآداب عام ١٩٨١ بأطروحة عن «السيرة الفنية في الأدب العربي حتى أوائل الثمانينات»، وأخيراً الدكتوراه في الآداب عام ١٩٨٨ بأطروحة عن «فنّ المقالة في سورية بين عامي ١٩٤٦ و١٩٨٠».

آثارها الأدبية:

١ ـ همسات من تحت التراب ١٩٩٢.

٢ ـ نفحات من الصين (من أدب الرحلات) ١٩٩٢.

٣ ـ السيرة الفنية في الأدب العربي حتى أوائل الثمانينات ١٩٩٥.

٤ ـ فن السيرة الذاتية في الأدب العربي حتى أوائل الثمانينيات ١٩٩٧.

٥ ـ حصاد العمر »سيرة ذاتية« ٢٠٠٠.

٦ ـ المطبخ الدمشقي عبر العصور ٢٠٠٢.

إضافة إلى عدد كبير من المقالات التي نشرتها في مجلات: الأديب والثقافة ومجلة العربي الكويتية، والموقف الأدبي السورية ومجلة الطبيب العربي في أوروبا، والصين اليوم، وجرائد البعث والثورة والاتحاد الإماراتية.

السيرة الفنية في الأدب العربي:

اهتمت الدكتورة مها العطار خلال دراستها الجامعية بأدب السيرة.. ورأت أنه فنّ رفيع عرفته الأمم القديمة، وتوارثه الأبناء من الآباء، وأنه من أهم الأنواع الأدبية لأنه قصة واقعية تدور أحداثها على أرض الواقع.. وشخصياتها أناس حقيقيون يعيدون أدوارهم كما هي على مسرح الحياة.. ويعيشون معنا، ويتنفسون مثلنا، ويفكرون كما نفكر، ويحلمون أحلاماً حلوة ومرة، ونجني من تجاربهم في الحياة أحلى الثمار.. وقد نجد في خبراتهم حلاً لتجاربنا التي نحار فيها.. وانطلاقاً من مكانة هذا الفن الأدبي الرفيع الذي استأثر باهتمامها، ألفت كتابها «السيرة الفنية في الأدب العربي»، وطوته على ثلاثة فصول، تحدثت في الفصل الأول عن نشأة السيرة عند الأمم القديمة وعند العرب، ثم عرضت نشأتها عند الغربيين، ومن ثم ظهور السيرة الفنية في الأدب العربي، وخلصت أخيراً إلى قيمة السيرة وفوائدها، وما قدمته السيرة الغربية من دفع للحركة الأدبية في العالم.. وتحدثت في الفصل الثاني عن الدوافع التي جعلت العرب يكتبون السيرة، فعرضت السيرة العربية القديمة، وكتب التراجم وأنواع السيرة عند العرب، ولا سيما السيرة التاريخية التي برعوا فيها، واستطاعوا أن يسجلوا فيها تاريخاً صحيحاً لرجالاتهم وعصورهم.. ومن ثم السيرة الخيالية والسيرة الأدبية التي أهملها العرب حتى في عصر النثر

الذهبي.. وعقدت موازنة بين السيرة العربية والسيرة الغربية، واستنتجت الأسباب التي أخّرت ظهور السيرة الفنية في الأدب العربي الحديث.

وتحدثت في الفصل الثالث عن نشأة السيرة الفنية في الأدب العربي الحديث، وانتهت إلى الخصائص الفنية العامة للسير العربية الحديثة في بنائها وأسلوبها وعاطفتها وخيالها وشخصياتها.. وأنهت كتابها بخاتمة شرحت فيها أهم النتائج التي توصّلت إليها، مع إعطاء فكرة عامة عن الموضوع وما قدّمت فيه من جديد..

فنّ السيرة الذاتية في الأدب العربي..

وعدت الدكتورة مها في مقدمة كتابها السابق بأنها ستلحق كتابها عن السيرة الفنية في الأدب العربي، بكتاب ثان تدرس فيه النوع الآخر والمهم من السيرة، ألا وهو السيرة الذاتية لأنها مرآة العصر الذي عاش فيه الكاتب، وانصهر في تياراته. وفعلاً عكفت بعد صدور كتابها «السيرة الفنية في الأدب العربي» على تأليف كتابها «فن السيرة الذاتية في الأدب العربي». فقرأت عشرات السير الذاتية، بل مئاتها من مذكرات كتبها سياسيون عرب وأجانب.. منها المترجمة ومنها باللغة الأصلية، وحاولت أن تستبطن دواخل هؤلاء الكتاب من خلال مقابلاتها معهم، أو قراءتها كتبهم.

قسمت المؤلفة كتابها إلى فصلين وخاتمة. فعرّفت في الفصل الأول السيرة الذاتية، وتحدّثت عن تاريخها منذ نشأتها عند العرب وظهورها في الأدب العربي الحديث، كفن سيري له خصائصه المتميزة.

وأوجزت في الفصل الثاني سيرتين عربيتين مشهورتين، الأولى «سيرة جبران خليل جبران» التي كتبها ميخائيل نعيمة، والثانية سيرة ذاتية هي «سبعون» لميخائيل نعيمة أيضاً.. وقد تضمنت هاتان السيرتان الخصائص المتميزة للسيرة الفنية الحديثة لتخلص من خلالهما وخلال بعض السير الذاتية العربية الأخرى إلى الخصائص الفنية المشتركة في السيرة والسيرة الذاتية والفروق في خصائصهما، وأنهت كتابها بخاتمة شرحت فيها أهم النتائج التي توصّلت إليها، مع إعطاء فكرة عامة عن الموضوع وما قدّمت فيه من جديد.

نفحات من الصين:

كتبت الدكتورة مها العطار هذه النفحات خلال إقامتها في الصين بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠ حيث عملت خبيرة في جامعة «شانغهاي للغات الأجنبية» وأستاذة للغة العربية وآدابها فيها.. وقد سجلت في هذه النفحات انطباعاتها وذكرياتها ومشاعرها في الصين، كأول امرأة عربية مسلمة شجاعة، اقتحمت أسوار الصين للعمل هناك في ظروف قاسية، بعيدة عن وطنها وأسرتها، لتكون هذه

الانطباعات والذكريات زاداً معنوياً يتزوّد به كل من يحب المعرفة والبحث في حياة الشعوب.. لقد عرفت المؤلفة أثناء إقامتها في الصين كيف تستغل وقتها بحكمة. فاستفادت من كل ثانية، وعقدت صداقات كثيرة بينها وبين مثقفين قدموا إلى الصين من أنحاء العالم.. وتقرّبت إلى الكثير من الصينيين العاملين في الجامعة والمسكن، لتصل إلى أعماق هذا الشعب الشرقي الطيب، وتكتشف أشياء لم تقرأها، ولم تسمع بها من قبل.. كما تعلمت اللغة الصينية للتحدث مع الباعة في السوق الذين كانوا يفاجئون حين تكلّمهم بلغتهم.. فتحدثت في الكتاب عن الأسباب التي دفعتها لزيارة الصين وعن الشاي الصيني، وسحر الجزر وروعتها، والجبل الأصفر، وخريف الصين، والحياة الاجتماعية والأطعمة، والسكان، والطفولة الصينية، وتقاليد الزواج والأزياء، والتعامل الإنساني، والطلاب الصينيين وإقبالهم على دراسة اللغة العربية في جامعة اللغات الأجنبية في شانغهاي.. وزودت الكتاب بعدد وافر من الصور الوثائقية.

همسات من تحت التراب:

كان هذا الكتاب المبلّل بالدم والدموع، أول كتاب نشرته الدكتورة مها العطار، وسطّرت فيه أصداء حزنها ولوعتها وفجيعتها بفقدان ابنتها الشابة وأسباطها الثلاثة إثر حادث سير أليم، وهي عائدة من مدينة بانياس دمشق.. عائلة كاملة قتلها سائق أرعن سكر، تخطّى قانون السير والعرف ليحطّم قلب أب مسكين، عمل طوال عمره مكافحاً، ليؤمن مستقبل أسرته، ويفجع أماً عاشت حياتها تعمل من أجل سعادة أولادها.

ابنة شابة بنت حياتها لبنة لبنة إلى جانب زوجها ورعت أطفالها وعلّمتهم وتحمّلت شقاء الحياة لتسعدهم، ولتقف إلى جانب الزوج مكافحة مناضلة من أجل لقمة العيش.. وفي لحظة من لحظات تهوّر السائقين، واستخفافهم بأرواح البشر، لفظ الأربعة أرواحهم يشكون إلى الله ظلم الأرض وقسوة الحياة!!

إن من يقرأ هذا الكتاب لا بد من أن يذرف الدموع بمرارة ويشارك المؤلفة حزنها الشديد الذي لم تتحمّله امرأة من قبل. ويتحسّر من صميم قلبه على البراعم الغضّة التي ذوت كما يذوي القضيب من الرند، وكان عزاؤها الوحيد التذرّع بالصبر، والتمسك بالإيمان بقضاء الله وقدره.

حصاد العمر:

هذا الكتاب الضخم الذي جاء في ستمائة صفحة من القطع الكبير، هو حكاية عمر الدكتورة مها العطار مع الأيام، منذ عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٩٩، أهدته إلى أولادها الثلاثة:

فواز وسامر وعامر، ليتعرّفوا دقائق حياة أمّهم العصامية المجدّة وجزئياتها، تلك الأم التي ربّتهم ووجّهتهم، وكانت رفيقة دربهم، وصديقتهم في أمورهم كلّها..

لقد أفردت هذه الصفحات المملوءة حباً وعطاء، ومعاناة وسعادة وتعاسة وشقاء.. من طفولة سعيدة إلى شباب زاخر بالحياة، إلى كهولة عاقلة وشيخوخة رتيبة حزينة، ملؤها الصبر والصدق والإخلاص والإيمان.. لعلّ القارئ يجد فيها شيئاً من ذاته، أو حلاً لبعض مشكلاته، أو طرفة وملحة نادرتين يحدّث عنهما أصدقاءه ومحبّيه..

لقد انتقت من قصة حياتها أو حصاد عمرها ما يهمّ القارئ ويرضي ذاتها ويقلقها، لعلها ترفع عنها هذا العبء الثقيل الذي يضغط عليها لتكتب هذه الأحداث، وتعيدها إلى مسرح الأحداث، بصراعها وحوارها وألوانها ونبضاتها السريعة الهادئة ليعيشها القارئ.. وحاولت أن تكون صادقة في كل ما روته، لأن أهم سمة من سمات السيرة الذاتية هي الصراحة والصدق، لكنها احتفظت بأشياء خاصة بها، آلت ألا تبوح بها، حتى لا تسيء إلى أحد ممن تحبهم.. كانت غايتها من تسجيل هذه الذكريات التي حصدتها من عمرها، ورسمتها صوراً حية نابضة، أن تنفع بها الأجيال القادمة التي تودّ أن تتعلّم من خبرات الآخرين وتجاربهم، وتعتبر بما جرى لهم.

### المطبخ الدمشقي عبر العصور:

لقد أحبت الدكتورة مها العطار أن تؤرخ لفن عريق موائد دمشق، مع أن اختصاصها الأدب ولا تنكر أنها قبل كل شيء أم ومربية وطاهية تقدم لعائلتها المآكل اللذيذة التي ورثتها من أهلها وتعلّمتها.. فهي تود أن تستمر تلك المأكولات وتتوارثها الأجيال.. وكما قالت لأصحابها: إن أدبها دمشقي اللون والطعم تفوح منه رائحة بهارات دمشق وزهورها.. كما أن طعم مآكلها متنوع كأنواع الأدب وفنونه!!. فالطهو فن عريق قديم قدم التاريخ الإنساني متحضّر يتبع حضارة كل أمة ويظهر تطورها وأناقتها وشكلها وروعتها.. كما أنه يستفيد من الحضارات الوافدة والممتزجة كالعلم والأدب واللغة والتاريخ.. ولا شك أن دمشق أقدم المدن المأهولة بالسكان جعلها متميزة بكل طرف من أطراف الفن.. ولعلّ فن الطهو فن محبب لدى الإنسان المتحضر، فقد وُجد الدمشقي في قلب الجزيرة العربية وفيها ألوان الخضراوات والفواكه فسهّلت على ساكنيها التفنن بالطعام والشراب..

وتعكف د. مها العطار الآن على طباعة كتابها «فن المقالة في سورية» لتلقي الضوء على هذا الفن المهم في حياتنا المعاصرة.. ولعلها تؤمن بأن النثر هو لغة الحضارة دون منازع!!




# قوافل الأحزان..

شعر: جورج شدياق - فترويلا

ودّعــتُ أهلــيَ والآمــالُ تسـبقُني

والقلـبُ يهتـفُ لا ترحـلْ عـنِ الـوطنِ

أجبتــهُ وحنايــا الصـدْرِ داميــةٌ

مــا نفـع عمـري بـين الهـمِّ والحَـزَنِ

أمــا تــرى الفقْــرَ في إثــري يُلاحقــني

مــن ذا ألــومُ ودهــري غــير مــؤتمنِ

إنــي لألمــحُ خلــفَ البحــرِ بارقــةً

فلــتَمْضِ بــي نحــو ذيّــاك السـنا سُـفُني

نعـمْ هجـرتُ الحمـى والأربعـون مضـتْ

فــذاك قلــبِ صـريعُ اليــأسِ والشـجنِ

يــا ليــتَ لمْ يُغْرِنــي مــالٌ ولا وَرَقٌ

أنــا عــنِ المــالِ مــا طــالَ البعــادُ غــني

فمــا أنــا اليــوم مــن يرجــو الغنــى أبــداً

ومــا أنــا اليــوم مــن يَرْتــاحُ للمِــنَنِ

عفــواً بــلادي أمــوتُ اليــوم مــن نَـدَمي

يــا ليــتَ يــوم عــاني الهجــرُ لمْ يَرَنــي

* * *







أقــص همــومي وأدناهــا هــمُ العَــرَبُ
إنــي إلى هــذهِ الأرحــامِ أنتســبُ
مــالي أرى أمــتي الكــبرى مُمزقــةً
أيــن الأُبــاةُ.. وأيــنَ الســادةُ النُجُــبُ
مواقــفُ الــذلّ لا تــألو تُعــذّبني
أمــا تــرى القلــبَ في جــنبيَّ يَنْتحــبُ
إذا الســواعدُ لمْ تــنهضْ لنجــدتها
فكيــف تنقــذُها الأشــعارُ والخُطَــبُ
أشــحذُ الحــقَّ ممــنْ لا ضــمير لهــمْ
مــا عــادَ يــردعهمْ عــن غــيِّهمْ أدبُ
يهفــو إلى وطــني قلــبٌ بــهِ ألمُ
ومهجــةٌ مــن جسيمِ الخَطْــبِ تضــطربُ
مازلــتُ أســألُ والآلامُ في كبــدي
حتّــامَ تلــهو بنــا الأرزاءُ والنُــوَبُ
نعــمْ أنــا عربــيٌّ خــافقي ودمــي
كلاهمــا مــع قــوافي الشــعرِ ينســكبُ

* * *

أخلصــتُ للصَــحْبِ إخلاصــي لأحبــابي
وحــبُهم ظــلَّ كرمــى الحــبِّ مــن دابــي
حشــدتُ كــلَّ ضــلوعي في محبــتِهمْ
فلــمْ أَدَعْ أيَّ ضــلعٍ تحــتَ أثْــوابي
أبــوابُ قلــبيْ لكــمْ مــا عشــتُ مُشْــرَعةٌ
هيهــات أُوصــدُ دونَ الصَــحْبِ أبــوابي
مــا خنْــتُ عَهْــدَ صــديقٍ صــادق أبــداً
أولى بمــنْ لا يخــونُ العَهْــدَ أهْــدابي






عُقـوقُ صـحبيَ أَدمـى مُهجـتـي ألمـاً
ردُّ الجميـلِ قصـيٌّ عنـدَ أَصـحابي
مـن كـانَ عـوني علـى حُـزْنٍ أكابـدُهُ
وَمَـنْ درى مـنهمُ يومـاً بأوصـابي
إلامَ أُصـفيهمُ ودّي وعـاطفتي
يـا ويـحَ جـنبيَّ مـن ظفْـرٍ ومـن نـابِ
كؤوسـهمْ لمْ تكـنْ شـهداً ولا عَسَـلاً
لكـمْ شَـرِقتُ بكـأسِ المـرِّ والصـابِ

* * *

متـى تعـودُ لنـا أيامُنـا الأُوَلُ
وكـلُّ أعلامِهـا الاقحـاحِ قـد رحلـوا
قـد كـان للشعرِ خلـف البحـرِ مملكـةٌ
كـبرى، وكانـت لنـا في ظلِّهـا دُوَلُ
مازلـتُ أبكـي علـى أطلالِهـا ألمـاً
فالـدمعُ عَـوْنٌ لمـنْ أزرى بـهِ الأمـلُ
واهـاً علـى أدبٍ خلـف البحـارِ قضـى
فرسـانُهُ رُسُـلٌ.. مـا بعـدهمْ رُسُـلُ
بـأيّ قافيـةٍ أرثـي الأُلى رحلـوا
والشـعرُ مُنقطـعٌ حينـاً ومُتصـلُ
شـعري كقلـبي حـزينٌ لا يُطـاوعني
فهـلْ تُـراهُ مـنَ الأحـزانِ يكتَهِـلُ
وحـدي بقيـتُ وراء البحـرِ وا أسـفي
فكيـفَ امضـي ودونـي قـد دَجَـتْ سُبُلُ
تنـوشُ قلـبي شـجونٌ حـين أذكـرهمْ
هيهـات يمضـي بـذكرٍ خالـدٍ أَجَـلُ

* * *






تُـــرى يمــجُّ مـــداداً أمْ دمـــاً قلمـــي
فـــأيُّ جـــرحٍ قلـــبي غـــير ذي ألمِ

ليـــبرأ الشـــعرُ مـــن هـــذْرٍ يعيـــثُ بـــهِ
فكيـــف يحلـــو بـــلا وزنٍ ولا نَغَـــمِ

هـــذي الطلاســـمُ لا تســـمو بعاطفـــةٍ
ولا تطـــيرُ بإحســـاسٍ إلى قِمَـــمِ

خرائـــدُ المتـــنبي بعـــد خالـــدةٌ
لمّـــا تنـــلْ مِـــنْ قوافيهـــا يـــدُ العَـــدَمِ

لقـــد جَعَلنـــا لهـــا أكبادنـــا حرســـاً
حاشـــى تجـــورُ عـــوادِمِهْم علـــى حَـــرَمِ

وذاك شـــوقي أمـــيرُ الشـــعرِ أورثَنـــا
فرائـــداً دُوراً تســـمو عـــن الـــتُهَمِ

لا تفتحـــوا لجديـــدِ الشـــعرِ بـــابَهُمُ
فقـــدْ نعيـــهِ ســـويّاً غـــزوةَ العَجَـــمِ

أُرضـــي ضـــميري إذا أَفْصَـــحْتُ عـــن ألمـــي
فـــلا تلُمـــني.. وإن شِـــئْتَ المـــلامُ لُـــمِ

* * *

عـــلامَ شـــطّوا رفـــاقُ الحـــرفِ وابتعـــدوا
وفـــيمَ لمْ يـــدرِ – واحزنـــي – بِهـــمْ أحَـــدُ

كـــمْ هدهَـــدَتْ مُهجـــتي الحـــرّى رســـائلُهمْ
واليـــوم – يـــا ربّ – لا صـــبرٌ ولا جَلـــدُ

هـــذي جفـــوني غزيـــرُ الـــدمع قِرَّحَهـــا
فكـــلُّ مـــا في حنايايـــا لهـــا مَـــدَدُ

رثيـــتُهمْ وفـــؤادي في الحشـــا مُـــزَقٌ
فقـــدْ تـــولّى قـــوافي شـــعريَ الكَمَـــدُ







هـمُ الأُلى أخـذوا رغـم المـدى بيـدي
يرضـى الغريـبُ إذا مُـدّت إليـهِ يـدُ
حنـوا علـى الضـادِ مثلـي حينمـا وجـدوا
في صحبة الحرفِ - كرمى الضادِ - ما أجدُ
مـن ذا إذا مـتُ يـرثيني بقافيـةٍ
وهـلْ تُرانـي إذا مـا غبـتُ أُفتقـدُ
أسـتعذبُ المـوتَ مـن أجـلِ اللقـاءِ بهـمْ
حاشـى يضـنّ بـذيّاك اللقـاءِ غـدُ

* * *

خِلْـوٌ مـن الحـبِّ قلـبّي وهـوَ ظمـآنُ
هيهـات تشـفي غليـلَ الـروحِ أشـجانُ
جرْحـانِ في خـافقي المفـؤود مـا انـدملا
ففـي ثناياهمـا وِقْـدٌ وبُركـانُ
أَعرضْـنَ عـني بنـات الحـيِّ قاطبـة
فمـا لشـعري وقـدْ أغليتـهُ شـانُ
خطبـتُ ودَّ سـعادٍ فانثنـتْ ومضـتْ
عـني وفي صـدِّها للـرْفضِ برهـانُ
وحـين يممـتُ ليلـى طالبـاً يـدَها
رَنَـتْ إلـيّ بصـمتٍ فيـهِ تبيـانُ
كتمـتُ جرحـي عـنْ حـزنٍ وعـن ألمٍ
فالصـمتُ حينـاً لجـرحِ القلـبِ سُـلوانُ
الشـعرُ وحـدهُ رغـم الفقـرِ أخلـصَ لـي
ومـا تأبّـتْ علـى الإخـلاصِ أوزانُ
حبيبـةُ العُمْـرِ عفـو الغْيـدِ قافيـةٌ
أسـلوبها، ورفيـقُ العمـرِ ديـوانُ

* * *







لا تعجبنَّ لـدمعي مُـذْ مضتْ أمـي
غَفَـتْ وفي مقلتيهـا قـد غفـا رسمـي
كلامُهـا العـذْبُ يحيـا بعْـد في أُذُنـي
مـازالَ عـوني علـى أيـاميَ السُـحْمِ
في غـرفتي رسمُهـا يحيـا معـي أبـداً
حينـاً يهدهـدُ حزنـي.. تـارةً همّـي
شـيعتُها ودمـوعُ العـينِ طيّعـةٌ
لمّـا تـزل مـن حنايـا أضلعي تهمـي
في كـلِّ ركْـنٍ أراهـا بعْـد جالسـةً
ترجـو سمـاعَ رقيـقِ الشعـرِ مـن نظمـي
مازلـتُ أروي فـؤادي مـن نصـائِحها
أكـرمْ بأميّـةٍ تاقـتْ إلى العلْـمِ
يـا حبـذا قبلـةٌ غـرّاء تطبعُهـا
علـى جبيني.. ولا أحلـى مـن اللـثمِ
وحبـذا ضـمّةٌ منهـا تعـانقُني
يـذوبُ مـن دفئِهـا ثـني الحشـا عظمـي
جرحـي القـديمُ عصـيٌّ بعـدُ لم يشـفَ
ودمـعُ عـيني غزيـرٌ بعـدُ مـا جفّـا
مضـى أبـي وهـو أسـتاذي ومدرسـتي
لمْ أنـسَ مُـذْ صغري مـن درسِـهِ حَرْفـا
ودعـتُ فيـه مزايـا كنـت أعشـقها
قـد كـانَ أنقـى مـن السلسالِ بـلْ اصفى
شـيعتُهُ وحنايـا أضـلعي مُـزَقٌ
وذاكَ حزنـي عمّـا في الحشـا شـفّا







ذكراهُ تستلُّ من عيني الكرى أبداً
هيهاتَ أغمضُ ما آن الدجى طَرْفا
كيفَ السلوُّ وحزني لا يُهادنني
داري غدتْ ليَ مُذْ ودعتُهُ منفى
أحببتُ فيهِ - بلا شكوى - صرامَتَهُ
أليسَ منها جنيتُ الحبَّ والعطفا
أقولُ والهمُّ يغري مُهجتي ألماً
ما ضرَّ لو كان من حُكمِ القضا مُعفى

* * *

الدهرُ من خبزِ قلبي بعدُ يقتاتُ
وكأسُ خمرتهِ هذي الكُرياتُ
مرَّ الشبابُ وأيامٌ منضّرةٌ
وما تبقّى فآهاتٌ وأنّاتُ
أهوى صراحةَ مرآتي تُكلّمني
هيهات تخدعُني ما عشتُ مرآةُ
حقولُ عمري هل غاصتْ بشاشتها
أمْ هنَّ رغم خريفِ العمرِ جنّاتُ
تُخيفني شيبتي..؟! أمْ شيبُ قافيتي
والعمرُ ما طالَ أيامٌ وساعاتُ
ما المرءُ لا غايةٌ تُرجى ولا أملٌ
وسُنّةُ العيشِ آمالٌ وغاياتُ
تُرى أتأفلُ شمسي قبلَ موعدِها
وفي فمي من عيونِ الشعرِ أبياتُ
وفي يدي قلمٌ لمْ يُعصني أبداً
هاتوا السلوَّ إذا حُمَّ القضا هاتوا




# الأقحوان..

بقلم:
أحمد الخوص

والأقحوان ذلك الورد الجميل في الجو العليل صباحاً وعند الأصيل يشفي القلب الغليل برائحته الزكية وشذاهُ المنتشر في أنحاء الأرض الخضراء التي تحتاج إلى الماء إضافة إلى أنه علاج دوائي لكثير من الأمراض، وقد عُرف هذا الأقحوان دواءً منذ قديم الزمان لتسكين الصداع وإرخاء العضلات.

١ ـ أصل الأقحوان:

أقحوان FEVRFEW هي زهور تستعمل في أمراض الجلد والجروح والدوالي والقروح والحروق والعين المسيلة للدموع وهي ملينة ومسكنة للألم وعند غليها يستخدم المحلول في معالجة المغص والبرد والكحة والزكام والمعدة والجهاز الهضمي والكبد والكلى والمثانة.

أما الاسم العلمي فهو: CHRYSANT HEMUM MORI FOLIUM والأقحوان عشب معمر موطنه أوروبا وآسيا ينمو على المنحدرات الصخرية، ويزرع حالياً في أغلب بقاع الأرض والجزء المستخدم منه رأس الزهرة بعد تفتحها بالكامل حيث يصل ارتفاع النبتة حوالي متر إلى متر ونصف.

أما الأوراق فلها عبير عطري منعش وهو صالح للأكل وعلاجي كان الأقحوان معروفاً للمصريين واليونانيين القدماء الذين اعتبروه علاجاً ثميناً لتسكين الصداع، والأقحوان أيضاً مفيد في إرخاء العضلات الملساء في الرحم، وهو مفيد لألم الحيض.

الفوائد الرئيسي للأقحوان مضادة للبكتيريا، مقاومة للالتهابات، مضادة للتشنج، طاردة

للريح، معرق، مدر للبول، دواء مدر للطمث، ملطف للحمى، ومقوين موسع للأوعية الدموية.

٢ - المعنى اللغوي:

جاء في لسان العرب:

الأقحوان: الأقحوان: نبت تشبه به الأسنان ووزنه (أفعلان) والهمزة والنون زائدتان، ابن سيده: الأقحوان البابونج أو القرّاص واحدته أقحوانة ويجمع على أقاح وقد حكي قحوانٌ ولم يَر غلاً في شعرٍ ولعله على الضرورة كقولهم في حد الاضطرار سامة في أسامة، قال الجوهري:

هو نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر. ويصغر على أُقيحيّ لأنه يجمع على أقاحٍ بحذف الألف والنون، وإن شئت قلت أقاح بلا تشديد.

قال ابن بري: عند قول الجوهري: ويصغر على أُقيحيّ، قال: هذا غلط منه وصوابه: أُقيحيان والواحدة أقيحيانة، لقولهم: أقاحي كما قالوا ظريبان في تصغير ظربان، لقولهم ظراي. والمقحو من الأدوية: الذي فيه الأقحوان. ودواء مقحو ومقحي: جُعل فيه الأقحوان.

الأزهري: والعرب تقول: رأيت أقاحي أمره كقولك: رأيت تباشير أمره وفي النوادر: أقتحيت المال وقحوتة واجتففته وزادففته أي أخذته.

الأزهري: أقحوانة موضع معروف في ديار بني تميم، قال: وقد نزلت بها.

ابن سيده والأقحوانة موضع بالبادية، قال:

من كان يسأل عنا أين منزلنا؟
فالأقحوانة منا منزل فِمنُ

وجاء في القاموس المحيط:

الأقحوانُ: بالضم البابونج كالقحوان بالضم ج أقاحيّ وأقاح ودواءٌ مقحو وقحي فيه ذلك والأقحوانة ع قرب مكة وع بالشام بين البصر والنباج وأقاحي الأمر تباشيره وقحا المال أخذه كاقتحاهُ والمقحاةُ المجرفة.

وجاء في معجم متن اللغة:

الأقحوانُ: البابونج عند العجم، والقرّاص عند العرب وهو نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض وسط أصفر مفرض الورق دقيق العيدان، وتشبه به ثغور الجواري الحديثات السن، الواحدة أقحوانة. (والقحوان لغة فيه أو لم ترد إلا في الشعر).

ومنه نوع يسمى زهرات الغريب في دمشق وأروالة في مصر، وتصغيره أُقيحيّ أو قيحيان. وجمعه أقاح وأقاحيّ.

وجاء في قاموس اللغة: (المصباح المنير للفيومي):

الأقحوانُ: أقحوان بضم الهمزة والحاء من نبات الربيع له نورٌ أبيض لا رائحة له وهو في تقدير (أفعوان) الواحدة أقحُوانة وهو البابونج عند الفرس.

وجاء في المعجم المدرسي:

الأقحوان: نبات عشبي حولي تزييني من الفصيلة المركبة ينمو برياً وزراعياً وهو من المحاصيل الصناعية والطبيّة. وأوراق زهر الأقحوان صغيرة يشبهون بها الأسنان، قال: افترت عن نور الأقحوان.

قال البحتري:

كأنمـــا يبســـم عـــن لؤلـــؤٍ

منضَـــــدٍ أو بـــــرَدٍ أو أقـــــاح

٣- الأقحوان في الشعر:

ولقـد تناولـه الشـعراء العـرب بشـعرهم فظهرت رائحته الزكية من خلال هذا الشعر الذي هو ديوان العرب وهذا الشاعر يرسم بريشته عنـاق الأقحـوان بالجمـال لأن الله جميـل يحـب الجمال وذلك ما عبر عنه الأبيوردي فقال:

أعِـد نظـراً هـل شـارَف الحـيُّ تهمَـدا

وقـد وشَّـحَتْ أرجـاؤُهُ الـرَّوضَ أغيـدا

جـلا الأُقحـوانُ النضـرُ ثغـراً مُفَلَّجـاً

بـهِ والشَّـقيقُ الغـضُّ خـدّاً مُـوَرَّدا

إذا المُـزنُ أذرى دمعَـهُ فيـهِ خَلتُـه

علـى طُـرَرِ الريحـانِ دُرّاً مُنضَّـدا

ومـا الجـزعُ مِـن واديـهِ رَبعـاً ألفتُـهُ

فَقَـد كـانَ مغنـىً لِلغَـواني ومَعهـدا

تلـوحُ بأيـدي الحادِثـاتِ رُسُـومُهُ

وشـوماً فـلا مَـدَّت إلى أهلـهِ يـدا

ولازالَ يسـقي شِـربهُ مـن مـدامعي

شـآبيبَ تحكـي اللؤلـؤ المُتَبَـددا

وقفـتُ بـه والشَّـوقُ يرعـي مسـامعي

حـنينَ المطايـا والحَمـامَ المغُـرّدا

وهذه الأثواب المزركشة في تلك الرياض الخضراء حيث الألوان تشكل قوس قزح يضرب الأرض بهذه الألوان العجيبة والمناظر الخلابة التي تذهب بالعقول وتمد الخيال إلى أوسع نقطة وهذا ما عبر عنه أديب التقي بقوله:

الـــروض قـــد نبهّـــهُ ســـاجعُه

فهـــبَّ مـــن رقدتِـــهِ هاجِعُـــهُ

الأقحـــوانُ باســـم ثغـــرُهُ

والـــوردُ غَـــضٌ المجتنـــى يانعُـــهُ

تضـــوَّع النســـرين في جـــوّه

فـــنمَّ عـــن فوّاحـــه ضـــائعُهُ

والنـــرجسُ النـــاعس قـــد طلّلـــه

قطـــر النـــدى يُخضِـــله واقعـــهُ

يعجبـــكَ الأصـــفر مـــن لَونِـــهِ

كأنمـــا مـــن ذهـــب فاقعُـــهُ

أما ابن قلاقس فقد وضع الأقحوان في جانب الزنبق لتشابهما في اللون كذلك في الورد والنرجس فقال:

كـــذاك لـــونُ الأقحـــوان

ن مثـــل لـــونِ الزنبـــقِ

والـــوردُ كالخـــدّ كمـــا الـــ

ـــنرجسُ مثـــل الحَـــدقِ

أو لم يسق الندى الرطب ذلك الأقحوان ليزيده نضارة وضياءً كذلك عضت الأصابع متألمةً كئيبة وما أن يجري الدّر الرطب على خدها ويسيل إلى مجراه الطبيعي حتى يتوقفَ عن الجريان فقد قال ابن حميدس مشيراً بكلماته إلى هذا الموقف الرائع:

سقى الأقحوانُ الطلُّ عفّة
وعضّتْ من الحزنِ البنانَ المطرّفا
ولما جرى الدرُّ الرطيبُ بِخَدّها
وسال إلى الدّر النظيم توقّفا

وكيف لا يعجب الشاعر من الغزل بين النباتات كأنها مجموعات من الشباب يتغازلون ويتحابون ويقترب بعضهم من بعض لينشروا الروائح الزكية والعطور الباريسية، يقول ابن الساعاتي:

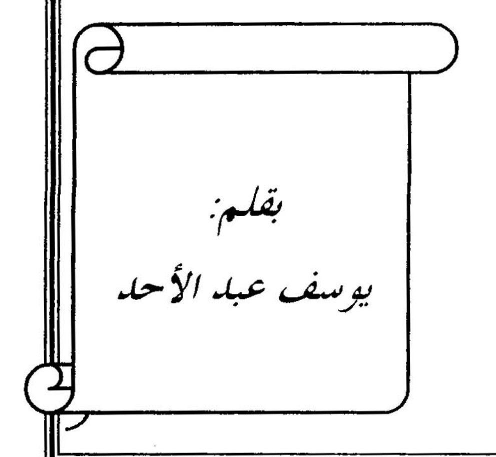
فظللتُ أعجبُ حيث يحلف صاحبي
والمسكُ من حافاتها يتنفّسُ
ما الجوُّ إلاّ عنبرٌ والدَّوح !
لاَّ جوهرٌ والأرض إلاَّ سندسُ
سفرتْ شقائقُها فمَّ الأُقحوا
نُ بلثمها فرنا إليه النرجسُ

إن الناظر للأقحوان يره كأنه ثغرها الجميل والنرجس الذي يُسحر العيون وقد ظهرت الورود على الخدود ولبست الأشياء الواشى المنمنمة وكأن شهب السماء هبطت إلى الأرض لتحييَ الشاعر تحية المشتاقين لبعضهم وهذه المناظر الخلابة فاقت سحر بابل حيث سحرته بما يأخذ بالألباب، فيقول ابن الجيّاب الغرناطي:

فناظر منها الأقحوان ثغورها
وقابل منها نرجس سحر أحداقِ
وناسب منها الوردُ خَداً مورّداً
سقاه الشباب النَّضْر بورك من ساقِ
وألبسنَ من صنعاء وشياً مُنمنَماً
وحُلّينَ من دُرٍ نفائسَ أعلاقِ
بأحلى لأفواه وأبهى لأعينٍ
وأجلى لألبابٍ وأشهى لعُشّاقِ
رأيتُ بها شهب السماءَ تَنَزّلت
إليَّ تحييني تحية مشتاقِ
ألا إنَّ السحرَ لا سحَر بابل
فقد سَحَرت قَلبي المُعنَّى فَمَن راقِ
لقد أعجزت شكر فضائلِ ماجد
أبرِّ بأحبابٍ وأوفى بميثاقِ

والأقحوان واحدةٌ من السجاجير الربانية التي أهداها الله سبحانه وتعالى إلى الأرض من أقصاها إلى أقصاها ومن شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ولا شك أن الأقحوان سلاح فعال لكثيرٍ من الأمراض المنتشرة في سائر المعمورةِ ولاسيما أنه ملطف للحمى ومقوٍ، وموسع للأوعية الدموية حيث سبق الآلة بقرون عديدةٍ في العلاج والشفاء إلى جانب جماله الأخاذ لعقول الذواقين في شتى أنحاء العالم.

# الأديب والشاعر المهجري المعلم داود قسطنطين الخوري ١٨٦٠ - ١٩٣٩




ولد داود الخوري في الثاني من شباط سنة ١٨٩٠ في مدينة حمص. والدته السيدة زهراء من عائلة لوقا الحمصية.

تلقى دراسته الأولى ومبادئ القراءة والكتابة والحساب في المدرسة الوطنية في حمص، ثم درس اللغة العربية وآدابها واللغة التركية على يد والده قسطنطين، وكان مولعاً بالمطالعة وأخذ ينهل من أمهات الكتب التي في مكتبة أبيه فكانت هذه المطالعات الشخصية هي مدرسته الكبرى فأكسبته ثقافة واسعة ونبغ في التأليف المسرحي والأدب والشعر والفن والتمثيل.

وفي عام ١٨٨٨ عمل مدرساً للغة العربية والتاريخ والرياضيات في المدارس الأرثوذكسية، وكان يراسل عدة جرائد ومجلات في الوطن، منها جريدة المنار والمحبة وجريدة المسيحية وهي لسان حال السينودس الروسي وكانت تصدر في بطرس برغ، فنشر في هذه الجرائد مجموعة من المقالات الأدبية والانتقادية والتمثيلية.

عيّنته الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية التي كانت تشرف على المدارس الأرثوذكسية عضواً عاملاً في إدارتها تقديراً منها لأدبه وخدماته الجلى، ومنحته الحكومة الروسية وسام القديس فلاديمير سنة ١٩٠٧.

تولى رئاسة تحرير جريدة حمص قبل الحرب العالمية ونشر فيها عشرات المقالات القيمة، واستمر في خدمة الأدب والفن والمؤسسات والجمعيات الخيرية والاجتماعية والوطنية إلى أن وقعت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ انقطع عن التدريس بسبب إغلاق

المدارس وتوقفت أيضاً جريدة حمص عن الصدور.

كان المعلم داود يتمتع بذكاءٍ خارق وخيال واسع وسخّر قلمه لخدمة بلده ومجتمعه وكان ضليعاً في العلوم الرياضية والطبيعية والموسيقية وبألحان الفن وأوزانه وبالتمثيل.

زواجه:

في شهر تموز سنة ١٨٩٢ تزوج من الآنسة كرياكي ابنة الخوري إبراهيم السمان الحمصية وأنجبت ثلاث بنات وثلاثة صبيان وهم مفيدة ولدت سنة ١٨٩٣، وأديل ولت سنة ١٩٠٧، وعفيفة ولدت سنة ١٩١٠، وتوفيق ولد سنة ١٨٩٦، وألبيرتو ولد سنة ١٩٠٠، وعفيف ولد سنة ١٩١٢.

هجرته إلى البرازيل:

هاجر داود مع عائلته إلى سان باولو البرازيل سنة ١٩٢٦ بناءً على إلحاح ولديه توفيق وألبرتو، وقبل سفره أقامت له جمعية (نور العفاف) النسائية حفلة وداعية وأهداه عمدتها وساماً ذهبياً تقديراً لخدماته الإنسانية المبرورة، كما احتفلت الجالية السورية بقدومه إلى سان باولو، ثم ترأس النادي الحمصي وازدهر على أيامه ازدهاراً كبيراً.

وفاته:

في السادس عشر من شهر شباط سنة ١٩٣٩ وافته المنية في سان باولو البرازيل بعد أن قضى فيها أربعة عشر عاماً.

أقامت له الجاليات العربية حفلات تأبينية كبرى ورثاه كبار الشعراء والأدباء، منهم الشاعر نسيب عريضة وندره حداد وبدري فركوح وهم من تلامذته.

نقش على قبره الرخامي هذان البيتان من نظمه:

تفنى الجسوم ورسمها
يفنى على مرّ الزمن
فابرر فليس يدوم إلاّ
الله والذكر الحسن

وكرّمت حمص ابنها البار بتسمية شارع باسمه في حي باب السباع المبتدئ من شارع محمد عبده والمنتهي بشارع أمية، وذلك بموجب قرار بلدية حمص رقم ٢١٦ وتاريخ ١٩٥٣/١٠/٢٩.

مؤلفاته الروائية:

١- الأميرة جنفياف.
٢- اليتيمة المسكوبية.
٣- الصُدف المدهشة.
٤- عمر ابن الخطاب والعجوز.
٥- الابن الضال.
٦- جابر عثرات الكرام.
٧- السامري الشفيق.
٨- العشر العذارى.
٩- المعلم داود الخوري تراثه الكامل - وزارة الثقافة ١٩٦٤.




# وادخُلوها بسلام

*شعر: حسن خضر شريقي*

إلى الأب العظيم (إلياس زحلاوي) أهدي عبق هذه القصيدة

هَـــلْ أُصَــلِّي، أم أُغَنِّـــي للشــآمْ
لســتُ أدري.. إنــني أخشــى المــلام؟
أم أُناجيهــــا بصـــمتٍ خاشـــعاً
مثلمـــا البـــدرُ يناجيـــه الغمـــامْ؟
أم أُذيـــبُ القلـــبَ في مِحرابهـــا
مثلمـــا الهـــدأةُ ذابـــتْ في الخيـــامْ؟
عاشِـــقٌ أرنـــو إليهـــا والهـــاً
أُمَـــوِيَّ الوجـــدِ.. صـــوفيَّ الهُيـــامْ
أحمـــديَّ النَّسْـــغِ.. نجـــديَّ الحشـــا
بطرســـيَّ البـــوحِ.. شـــاميَّ الوحـــام
قـــد ســـبتني (جِلَّـــقٌ) في خـــدرها،
واســـتباحتْ يقظـــتي بعـــد المنـــام
كـــلُّ مـــا فيهـــا شـــفيفٌ مُـــترفٌ
ســـاحرُ الإشـــراقِ ميَّـــاسُ القـــوامْ
مِـــنْ هِـــلالٍ، وصـــليبٍ تجتلـــي
نفحـــةَ التوحيـــد، لا لغـــو الخِصـــامْ
فيهمـــا الحـــبُّ ســـراجٌ ألـــقٌ،
وانعتـــاقُ النـــورِ مـــن قيـــدِ الظـــلام







مثـــلَ (معلـــولا) الـــتي ناقوسُـــها
مــــلأ الآذانَ دِفئـــاً، وانســـجامْ
مثـــل (صـــيدنايا) الـــتي عـــذراؤها
خصَّـــها الله بمجـــدٍ لا يُـــرامْ
مُنْـــذُ بـــدءِ البـــدءِ، والشَّـــامُ بَـــدَتْ
موئـــلَ الأحـــرارِ حُصـــناً للأنـــامْ
خمســـةُ الآلافِ عامـــاً، والسَّـــنا
في ربـــوعِ الشَّـــامِ للصَّـــادينَ جـــامْ
وســـتبقى أرضُـــها عِبْـــرَ المـــدى
قِلـــةَ الأديـــانِ، والبيـــتَ الحـــرامْ
هـــذهِ الشَّـــامُ الـــتي لا تـــنحني
لم تهـــنْ عظمـــاً، ولا خافـــتْ ضِـــرامْ
هـــذه الشَّـــامُ عَرينـــاً لم تـــزلْ
قلعـــةَ الأشـــبالِ يَنْبُـــوعَ الرِّهـــامْ
(قاســـيونُ) الصَّـــبُّ.. يـــا تليـــداً عاشـــقاً
يحـــرسُ الفيحـــاءَ، والنَّـــاسُ نيـــامْ
ضـــمَّها، فانزرعـــت في حُصـــنِهِ
أنجُمـــاً في قبضـــةِ الشَّـــرقِ حُسَـــامْ
يرتـــدي الغوطـــةَ ثوبـــاً فاتِنـــاً،
ولـــهُ مـــن بـــردى سُـــكْرُ المُـــدامْ
إســـألوا (حسَّـــانَ) عنهـــا تعلمـــوا
أنَّهـــا كالشَّـــمْسِ دِفئـــاً، وابتســـامْ
(حرمـــونٌ) أنشـــدَ الشَّـــام هـــوى
مثلمـــا (فـــيروزُ) غنَّـــتْ: يـــا شـــآمْ







ولهـــا في (ميســـلونٍ) بطـــلٌ
صـــيَّر استشـــهادَهُ أغلـــى وســـامْ
إســـألوا أبوابهـــا.. حاراتِهـــا
يـــا سمـــينَ الشَّـــامِ يزكـــو، والخُـــزامْ
برداهـــا.. غُوطتيهـــا.. نَبعَهـــا
إســـألوا الصَّفصـــافَ فيهـــا، واليمـــامْ
إنَّهـــا كالخُلْـــدِ فيهـــا أنهُـــرٌ
ســـبعةٌ للضَّـــادِ تشـــفي مـــن سُـــقامْ
إســـألوا الشَّـــاميَّةَ السَّـــمراءَ مَـــنْ
فَـــتَنَ العُشَّـــاقَ إذ طـــالَ الغـــرامْ؟
لـــيس إلاّهـــا ملاكـــاً آســـراً،
أو غـــزالاً آمِنَـــاً بـــينَ الكِـــرامْ
إنَّهـــا طيـــفٌ شـــفيفٌ مرهـــفٌ
مـــترفُ البـــوحِ لِصَـــبٍّ مُســـتهامْ
يـــا صـــبايا الشَّـــامِ.. يـــا طـــلَّ الضُّـــحى
يـــا ظبـــاءً لحظُهـــا ســـهمُ القتـــامْ
روَّعـــتني الأعـــيُنُ الحُـــورُ بمـــا
صـــوَّبَتْهُ، وَرَمَتْـــهُ.. مِـــنْ سِـــهامْ
إيـــهِ يـــا شـــامَ الهـــوى.. يـــا واحـــةً
خصَّـــها اللهُ بـــأمنٍ، ووئـــامْ
وارتضـــاها شـــامةً خلاَّقـــةً
لـــبني الإنســـانِ بـــدءاً، أو خِتـــامْ
إنَّهـــا الجنَّـــةُ عَـــزَّتْ مَســـكناً
فتـــداعوا، وادخلوهـــا بســـلامْ




# أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي

## (٥٩٩ - ٦٦٥)

### أبرَّ دمشق فكتب عنها عشرات المجلدات وقبره مهجور..؟

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

**مقدمة:**

يتفق المؤرخون على أن دمشق من أقدم المدن وأكثرها اتصالاً بالحضارات المختلفة التي ظهرت عبر القرون، لموقعها الجغرافي الفريد الذي جعلها ممراً لقوافل التجار والمسافرين، ومن مزاياها الحسنة أنها تُحبب الإقامة فيها للعلم والعمل والكسب، فقد عرفت أنها كانت دائماً تستقبل المهاجرين إليها، بل كان من يريد الهجرة يختار دمشق لفضلها وقدسيتها، ولمعرفتهم بمنزلتها بين المدن، كما كان يفزع الخائفون في أوطانهم إليها، فكانوا يجدون فيها أمناً وأماناً واستراحة وطمأنينة.

وتفتح دمشق ذراعيها لتستقبل الضيوف من المغاربة والأندلسيين والمقادسة والحجازيين والشراكسة والأرناؤوط والأكراد والأرمن وغيرهم، وقد وجد كل هؤلاء فيها ما يؤملون، فودتهم دمشق واختلطوا بأبنائها واحترمت علماءهم فوضعتهم موضع الصدارة ولم تمض بعض السنين حتى صاروا من أهلها، لا يعدلوا بها بلداً سواها، وأنستهم أنهم غرباء فما عاد يدل على بلادهم الأولى إلاّ أسماؤهم، وإذا أبناؤهم أبناؤها، ونساؤهم نساؤها، فلدمشق شأن عجيب بترحيبها بضيوفها. ومن الذين جاؤوا دمشق من بلادهم خوفاً من فتنة تصيبهم أو عدو يذلهم المقادسة وعرف منهم آل المقدسي الذين أحبوا الإقامة في دمشق، وبرز من هذه العائلة العلامة الموسوعي عبد الرحمن المقدسي المعروف بأبي شامة.

ولادته:

وصل الفرنجة إلى فلسطين واحتلوا القدس في المذبحة المشهورة في ٢شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ تموز ١٠٩٩م، وصارت فلسطين مع الساحل الشامي بالتدريج في أيديهم، وقد شارك في الدفاع عن القدس جده أبو بكر محمد بن أحمد المقرئ إمام مسجد الصخرة بالقدس فقتل شهيداً، عند ذلك رحلت الأسرة إلى دمشق وأقاموا قريباً من الباب الشرقي، وفي حي الفواخير الدمشقي المتواضع ولد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس شهاب الدين المعروف بأبي شامة، وذلك في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٥٩٩هـ/ ١٠ كانون الثاني ١٢٠٣م.

طلبه للعلم:

عندما بلغ أبو شامة العاشرة من عمره فاجأ أباه بقوله (قد ختمت القرآن حفظاً) فتعجب أبوه من ذلك كما كان يتعجب من ولعه بالتردد على المكتب (الذي كان يعلم فيه الصبيان) وسعيه في طلب العلم، وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان.

ثم لم يلبث أن بدأ بدراسة القراءات السبع والفقه والعربية والحديث، وبعد أن أتقن هذه الدراسات وفرغ منها رأى أن يصرف بعض عمره إلى الدراسة التاريخية حتى يستكمل ثقافته الدينية.

وعرف من أساتذته... علم الدين السخاوي وقد صحبه حوالي ثلاثين عاماً (٦١٤ – ٦٤٣)، وعز الدين بن عبد السلام، وابن الصلاح الشهرزوري، وموفق الدين المقدسي، وعبد الجليل بن مندويه.

شخصيته:

عُرف أبو شامة في كتب التراجم على أنه شهاب الدين، الإمام العلامة، ذو الفنون، الشافعي، المقرئ، النحوي، وتقول أيضاً إنه أتقن وبرع في العربية، كما أنه بلغ رتبة الاجتهاد، حتى عجب بعضهم منه حيث قلد الشافعي، كما عرف أيضاً بخطه الجميل المتقن، وبشعره الكثير وإن كان نظمه متوسطاً، كل هذا يدل على تنوع ثقافته، وعلى مشاركته في كثير من الفنون والعلوم التي جعلته في مصاف العلماء الموسوعيين المبرزين.

وأبو شامة بهذه الثقافة الموسوعية لم يَعْدُ أن يكون صورة متكررة لرجال عصره من العلماء الذين أخذوا من كل علم بنصيب إلاّ العلوم الفلسفية، وذلك تأثراً بالنهج العام الذي تميزت به الحياة العلمية في هذا العصر، وكان اهتمام السلاطين والأمراء ورجال الدولة بالتعليم، وتخصيصهم الأوقاف الكثيرة لطلاب العلم وللمعلمين، وتنافسهم في إنشاء المدارس، وتقريبهم للعلماء، كل هذا كان من العوامل التي ساعدت على انتشار الثقافة وتنوعها، حفزت الطلاب على الإقبال على تلقي العلم والتمتع بالميزات التي كان الواقفون ييسرونها لهم ويختصونهم بها.

والمتتبع لحياة العلماء في عصر النهضة العلمية الميسرة يجد أن كثيراً منهم اعتمد اعتماداً كبيراً على هذه الأوقاف والمدارس في

تنظيم حياته، مستفيداً بمواردها في فترات طلب العلم، ثم متقلداً منصب الأستاذية فيها، لكن إذا تتبعنا حياة العلامة أبي شامة في مرحلة طلب العلم، ثم فيما أعقب هذه المرحلة لنتبين وضعه في هذه الظروف الإجتماعية التي عاش فيها كثير من أنداده العلماء، وجدنا الغموض يكتنف حياته في جميع مراحلها، اللهم إلاّ في بعض الفترات القصيرة التي نجد عنها إشارات موجزة مختصرة، يذكرها أبو شامة بين حين وآخر، فتلقي قليلاً من الضوء على حياته في هذه الفترات القصيرة.

ومن هذه الإشارات أنه كان في سنة ٦١٥هـ مقيماً في المدرسة العزيزية بدمشق وكان عمره في السادسة عشرة من عمره، وبعد سنة أتم دراسة علوم القراءات، وفي سنة ٦٣٤ حتى سنة ٦٥٦ كان مقيماً بالمدرسة العادلية إقامة متصلة لم يقطعها إلاّ مدة انصرافه إلى بساتينه الخاصة، وأقام من سنة ٦٥٦ إلى سنة ٦٦٠هـ بالمدرسة الركنية مدرساً لها، وفي سنة ٦٦٢ عين مدرساً للمدرسة الأشرفية وبقي فيها حتى وفاته سنة ٦٦٥هـ.

والمتتبع لحياته وسلوكه يراه أنه تأثر كثيراً بشيخيه العز بن عبد السلام السخاوي، حيث اتخذهما قدوة فعزف عن المناصب الحكومية كما ترفع عن التكالب على أموال الأوقاف، لذلك انصرف مدة على بساتينه يفلحها بنفسه، ويعتمد عليها في حياته حتى أغنى بيته وتمكن من إسعاد أهله وأقاربه المحتاجين، وصان وجهه عن الناس وأحس بالحرية والاستقلال، وقد سجل ذلك في قصيدة بلغت ١١٠ بيتاً، ومنها قوله:

أيها العاذل الذي إن تحرّى ... قال خيراً ونال بالنصح أجرا

لا تلمني على الفلاحة، واعلم ... أنها من أحلّ كسب وأثرى

وبها صنت ماء وجهي عن النا ... س جميعاً، وعشت في القوم حرا

إذ بها صار منزلي ذا غلال ... مع عيال من بعد ما كان فقرا

ومن صفاته الطيبة تواضعه وطيب خلقه، يقول عنه الآسنوي (وفيه تواضع واطّراح كثير) أما الكتبي فقال (كان متواضعاً مطرحاً للتكلف) وكذلك شهد به ابن قاضي شهبة وغيره.

وهكذا كانت حياة أبي شامة في مجموعها سهلة مطمئنة، لم يعترضها من الصعوبات ما يعكّر صفوها أو يخرجها عن هدوئها واستقرارها.

### وفاته:

تعرض العلامة أبو شامة في حياته لمحنتين كانت الثانية سبب موته (قتله)..

١- استدعاه في سنة ٦٥٨هـ نائب التتار بدمشق وأهانه وهدده بضرب عنقه، فاضطر أن يدفع له مبلغاً كبيراً فأفرج عنه.

٢- تعرض لمحنة أليمة في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٦٥هـ وهو مقيم في بيته، حيث هجم عليه إثنان متظاهرين بأنهما قدما في طلب الفتيا فاعتديا عليه وضرباه كثيراً، ولم يكن يوجد أحد لينقذه فترك مريضاً مُجهداً، ثم عرض عليه بعض أصحابه أن يتقدم بالشكوى إلى ولاة الأمر فقال (قد فوضت أمري إلى الله، فما أغير ما عقدته مع الله، وهو يكفينا سبحانه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ثم توفي بعد شهرين ونصف من هذا الحادث، في التاسع عشر من رمضان سنة ٦٦٥/ ١٣ حزيران ١٢٦٧م، ودفن في مقبرة الدحداح بدمشق.

حال القبر اليوم:

إن المؤرخ أبا شامة أبر دمشق التي استقبلت أجداده وعشقها كثيراً، فكتب عنها الكثير، ووضع فيها عشرات المجلدات، وكأني بها لم تبره وهذا ليس من عادتها، فقبره اليوم مكب قمامة في إحدى زوايا مقبرة الدحداح، وكان الأجدر بنا أن نعتني به ونعرف به وهو الإبن البار لدمشق، ودمشق تعيش هذه الأيام نشاطاً ثقافياً باعتبارها عاصمة للثقافة، وإن ما أخشاه أن يندثر هذا القبر أو يغرق في القمامة إن لم تسرع في إنقاذه، يكفي أن مكتبته التي أوقفها للمدرسة العادلية احترقت سنة ٨٠٣هـ في وقعة تيمورلنك، عندما أحرق دمشق بأسواقها ومعابدها ومدارسها ودورها.

من مؤلفاته:

لقد ترك الكثير من المؤلفات القيمة، وما لم يحرق أو يتلف نقل إلى مكتبات أوروبا بعدة طرق، ومن هذه المؤلفات:

١- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ترجم إلى الفرنسية.
٢- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر في ١٥ مجلد.
٣- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر في ٥ مجلدات.
٤- مختصر تاريخ بغداد - لم يكمله.
٥- نظم العروض والقوافي.
٦- نظم مفصل الزمخشري في النحو.
٧- الذيل على الروضتين وهو تراجم رجال القرنين السادس والسابع.
٨- من نزهة المتقين.
٩- الكواكب الدرية.
١٠- إبراز المعاني في حرز الأماني في القراءات.
١١- المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول.
١٢- الألفاظ المعربة.
١٣- نور المسرى في تفسير آية الإسراء.
١٤- شرح الشاطبية.
١٥- الأرجوزة في الفقه.

وله غيرها عدة مؤلفات معظمها في حكم المفقود.

# "شعراء وذئاب"

## ولقاء مع الدكتور ثائر زين الدين

حاوره:
معين حمد العماطوري

«عندما نقرأ أدب الشاعر "د.ثائر زين الدين"، تكتشف جمالية فنية خاصة وشكلا متميزاً في الساحة الثقافية الأدبية، ومن يقرأ أعماله الأدبية المتنوعة في مجال الشعر والترجمة والقصة فإنك تمر بتجربة غنية، تشتم بها رائحة تراب الجبل، فلا يمكن للمرء أن يبقى بعيداً عن متناول وجبة أدبية شهية من أعماله القيمة، بل يستدعيك الفعل لدعوة الكثيرين من محبي الثقافة أن تجلس معهم لمناقشة الانبعاثات الثقافية والتجليات الخاصة التي يعيشها هذا الكاتب، في جملته وبيته الشعري الذي تتخلله الدلالة الشعرية والفكرية الواضحة، فهو بحق اختزل الزمن ومساحات واسعة من اخضرار الأحلام باسمه الجميل "د.ثائر زين الدين"، صاحب الإصدارات العديدة والجميلة والتي أغنى بها مكتبة الثقافة العربية».

لقد قدم "ثائر زين الدين"، في السنوات الماضية، تجربة شعرية، انكشفت على الداخل النفسي والوجداني للإنسان المعاصر، ماسحة عن جبينه أشواك الطريق، وصدى الأسى، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وكان آخر ما أصدره كتابه "شعراء وذئاب" وهو من الكتب المهمّة في الدراسات الأدبية التي تقرأ حقاً.

التقينا مع الأديب" د.ثائر زين الدين" الذي تحدث عن إصداره الجديد قائلاً: «رسم الشعر

العربي القديم بامتياز أشكال الصراع المختلفة التي عاشها الإنسان العربي منذ وجد نفسه على هذه الأرض، من صراع بين الإنسان والكائنات المختلفة التي تحيط به. إلى صراع بين المخلوقات كلها بما فيها الإنسان والطبيعة، إلى صراع ثالث بين الإنسان وأخيه الذي يقاسمه أسباب الحياة، وصولاً إلى صراع لا يمكن للمرء إن يخرج منه سالماً أن كان قد أتيح له ذلك في الأشكال السابقة إنه الصراع مع الدهر، وقد لا نجد شاعراً عربياً إلا عبر عن ذلك، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر عبيد بن الأبرص الذي رأى الموت الوارث الوحيد للأرض حين قال واصفاً أطلال الديار:

وبدلتُ من أهلها وحوشاً
وغيرت حالها الخطوب
أرض توارثَتْها شعوب
وكل من حلها محروب

ومنهم لبيد ربيعة الذي قال:

وما الناس والأهلون إلا ودائع
ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وبين "د. زين الدين" بالقول: «هذه الدراسة من إصدارات اتحاد الكتاب العرب إذ يجمع كتاب "شعراء وذئاب" بين دفتيه خمس دراسات تتناول شعرنا القديم، فتتحرك ضمن فضاء زمني مكاني حدوده تبدأ من العصر الجاهلي ولا تتجاوز العباسي، وهي دراسات لا رابط مباشر بين موضوعاتها، إن أحب القارئ أن يعثر عليه، لكنه بالمقابل سيجده في طموح هذه الدراسات أن تفتح عينه على أشياء جديدة في شعرنا القديم غيبت الألفة بعضها، وذهب النقد السطحي السريع ببعضه الآخر، حين تلهى الكثير منه بتقسيم الشعر وحتى القصيدة الواحدة إلى أغراض مكانيكية لا رابط بينها، فقرأ العائم دون أن يغوص على اللؤلؤ المخبوء في مياهه العميقة، وعجز عن التقاط الرمزي والنفسي الإنساني الخالد في نصوصنا، ولم يخرج إلاَّ بالتفسير القريب أو الدلالة التاريخية النسبية على أفضل حال، إذ تناولت الدراسة الأولى "شعراء وذئاب" حضور الذئب اللافت والكثيف في الشعر العربي القديم ، فدرسته في نصوص عديدة من الشعراء كالمرقش الأكبر والشنفرى وتأبط شراً وحميد بن ثور الهلالي وكعب بن زهير ومالك بن الريب وبن عنقاء الفزاري والفرزدق والبحتري والشريف الرضي وغيرهم، محاولةً رصد تنوع هذا الحضور، وتبدله وتطوره من حضور مادي فيزيائي بحت إلى حضور رمزي، وساعيةً للقبض على الغايات الفنية والفكرية الكامنة خلف ذلك رابطة هذه الظاهرة الأدبية بالظواهر

الاجتماعية، انطلاقاً من أن النص الأدبي ليس بنية معزولة، وإن كان بنية تنطوي على خصوصية شديدة، وعالجت الدراسة الثانية "في أمنيات الشعراء العشاق"، ضروب الأمنيات المختلفة، التي سالت شعراً على ألسنة شعراء العربية العشاق منذ الجاهلية حتى أواخر العصر العباسي، ابتداءً من تمني الوصال والصفاء، وصولاً إلى تمني الموت للنفس أو للمحبوب، مروراً بأغرب الأمنيات وأعجبها، في محاولة لرؤية ما تخفيه وراءها نفسياً واجتماعياً».

وأضاف "د. ثائر زين الدين" قائلاً: «يدرس البحث الثالث "أصوات شعرية قديمة انتصرت للأنوثة"، فيدرس نماذج شعرية للنمر بن تولب والعباس بن الأحنف ومسكين الدارمي وأبي خالد القناني وغيرهم، دافعاً من خلال ما يخلص إليه، فكرة طغيان الفحولة"على شعرنا العربي" بوصفها نسقاً ثقافياً خلق الشخصية العربية المُتَشعرِنَة، التي يحملها ديوان العرب، وتتجلى في سلوكنا الاجتماعي والثقافي بعامة، كما يحلو لأحد النقاد أن يقول: ومؤكداً العمق الإنساني الكبير، في نماذج الشعر تلك، وعلى قدرتها في تذويب كل ذلك داخل البنية الفنية للقصيدة، التي هي في نهاية المطاف" بنية لغوية معرفية جمالية".

وينطلق البحث الرابع قراءة جديدة لقصيدة "أراك عصي الدمع"، من رؤيا مفادها أن كثيراً من أشعارنا العربية القديمة "غامضة وبوّاحة" في آن واحد، وهي قابلة للقراءات المتجددة، التي تستطيع أن تنفض القش والتراب عن الجوهر المطمور عميقاً إن تمكن الباحث من فك رموزها، متسلحاً بثقافة شمولية وأدوات نقدية ثرية ومرهفة، وبالتالي سيحاول البحث أن يطرح بين يدي القارئ رؤيا جديدة لهذه القصيدة القديمة، زاعماً أن خلف وجه المرأة التي خاطبت أبا فراس قائلةً: «لقد أزرى بك الدهرُ بَعدنا»، إنما يكمن وجه آخر تماماً هو أقرب لوجه سيف الدولة الحمداني، ويعود البحث الخامس عن الوطن في الشعر العربي القديم، إلى تلمس مفهوم الوطن عند شاعرنا القديم، منزلاً، ومسكناً، ومضارب، وحمى، ثم وطناً للقبيلة، فوطناً بالمفهوم القومي والسياسي، ولاسيما حين كان الشاعر العربي يتعامل مع الآخر أو يصطدم به، روماً وفرساً، أو يضطر للهجرة إلى بلاده، انتهاءً برفض فكرة الوطن، فالأرض كلها من تراب واحد، والبشر جميعاً من أصل واحد، وبالتالي فهم أقارب، فليضرب المرء شرقاً وغرباً فكل بلاد الله أوطان".




# للهوى قلبي يغنّي..

شعر: علي مرهج

للهوى قلبي يغني
لحن حب وحنين
فالهوى لحن جميل
في نفوس العاشقين

كيف أنسى ذكرياتي
والنجوم الزاهرات
طيفها يجتاح ذاتي
وعروقي والوتين

يا عيون البدر هلّي
كانبلاج الفجر طلّي
أنت مرآتي وظلّي
قبس (يضوي) الجبين

من غرامي لا أملُّ
أنت زهر أنت فل
أنت فوق الخد طلّ
وأريج الياسمين

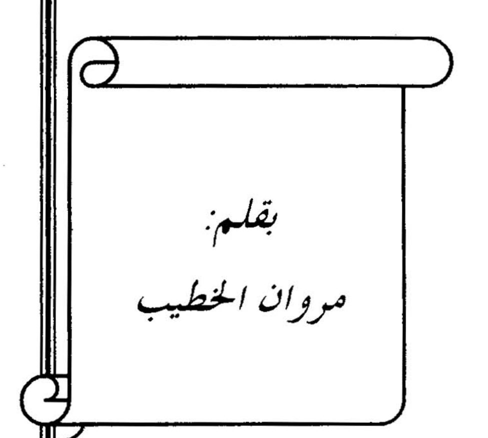
يا نديم العمر هيا
نحتسي الراح سويا
رشفة تغني المحيا
والهوى لا يستكين




# الشاعر المنسي

## ديك الجن

## هل نعيده إلى الحياة؟



بقلم:
مروان الخطيب

شاعر نسيه الكثيرون - أو تناسوه - في قديم أو حديث، خلا محاولات متواضعة لم تف الغرض المطلوب، الشاعر هو (ديك الجن) ذاك الذي عاش لنفسه أكثر ولغيره أقل.. حمصي المقام، حمصي الهوى، ولعله في عصره هو شاعر حمص الأوحد إبان العصر الذهبي للحضارة العربي الإسلامية، عصر كانت فيه الحياة الأدبية والعلمية في أوجها، عصر برز فيه دعبل الخزاعي (شاعر آل البيت) كما بشار بن برد وأبو نواس وأبو تمام - حبيب بن أوس الطائي - وغيرهم كثير، وكان لكل منهم شاعريته ومدرسته الفنية وله طريقته في تكوينه الشعري وقدرته في صنع اللوحة التي يريد.

إنه عصر هؤلاء جميعاً حيث تداخلت في ذلك العصر أجيال متباينة واجتمعت فيه ثقافات وحضارات متوارثة أدخلته في صفحات التاريخ عصراً حضارياً بكل المعايير، تشابكت فيه ثقافات متعددة حكمت شخصية كل هؤلاء الشعراء، إلاّ أن ديك الجن هذا كانت له شاعريته التي لونت حياته وشعره (فقصده هؤلاء الشعراء جميعاً ليحدثوه) ربما لاتفاق في شاعريته وربما أدركوا أيضاً أن مدرسته الفنية هي صنو مدرستهم لأن العناية بالأدب ومجمل الثقافات كانت سمة ذلك العصر..

لن نطيل في هذا ولنلج رحاب هذا الشاعر المبدع رغم قلة ما وصلنا من نتاجه الأدبي (في القريض) وهو النذر القليل ولاعتبارات مختلفة جرى طمس جل شعره وأخباره.

### ترجمته:

من هو (ديك الدن هذا؟) هو عبد السلام بن رغبان، جده (تميم) ممن أنعم الله عليهم بالإسلام على يد (حبيب بن مسلمة الفهري).

ولد ديك الجن في سنة إحدى وستين ومائة للهجرة في مدينة حمص وهو ما أجمع عليه المؤرخون، عاش بضعاً وسبعين سنة

وتوفي في العام ٢٣٦هـ على الأرجح في حمص ودفن فيها، قيل في تسميته (ديك الجن) لكثرة خروجه للبساتين وديك الجن - دويبة توجد في البساتين - فلقب بها.

سيرته:

عاش جل حياته في حمص ولم يبرحها سوى لفترة إلى دمشق بعد قتله لحبيبته ومن ثم عاد إلى حمص إثر استشفاع (أحمد بن علي الهاشمي) صديقه الأثير لديه (من السلمية) عند أمير دمشق.

كان خليعاً بما روي عنه عاكفاً على اللهو والشراب يتهالك على اللذة متلافاً لما ورث عن آبائه مما اضطره فيما بعد للتكسب بشعره (من أحمد وجعفر ولدي علي الهاشميين القاطني بلدة السلمية).

عرف عنه تنقله الدائم بين موطنه ومسقط رأسه (حمص) وبين (سلمية) موطن أصحابه وأحبائه.

كان متشيعاً مغالياً في تشيعه وحبه لآل البيت نظم مرات كثيرة في الحسين بن علي (كرم الله وجه) وكان في مغالاته ولهوه ومجونه ينحرف أحياناً فيصل في قريضه إلى مرحلة الشك والنيل من النص القرآني كما في قوله:

أأترك لذّة الصهباء عمداً
لما وعدوه من لبنٍ وخمرِ
حياةٌ ثم موتٌ ثمّ بعثٌ
حديثُ خرافةٍ يا أم عمرِ

اشتهر بحبه لفتاة حمصية (نصرانية) اسمها (ورد) أسلمت فتزوجها وله معها قصة طغت على شهرته الأدبية وربما هي التي شهرته كما عرف عنه هوايته لغلامٍ كان له اسمه (بكر) ولعل في رواية (ابن خلكان) أن ديك الجن اتهم غلامه بمحبوبته (ورد) فقتلهما معاً.

عرف بعصبيته على العرب (ربما لأصوله الفارسية) وقد نسب إليه قوله: (ما للعرب علينا من فضل.. ومن قتل منهم رجلاً قتل به..).

قيل أن (حبيب بن أوس الطائي) أبو تمام وهو من أهالي جاسم بحوران زاره بحمص وأخذ عنه فن القريض.. وقيل أن كان بينهما صداقة متينة (وذلك في رواية تحتاج إلى توثيق).

تأثرت شخصية (ديك الجن) وشعره بحياته الخاصة من مجون وخلاعة واحتساء خمرة حيث تهالك على ذلكً كله بإفراط كما تأثر بجاريته (ورد) حتى أن جل شعره وقفه عليها قبل وبعد مقتلها ثم ندمه على القتل بعد أن توضحت له حقيقتها ولا ريب أنه تأثر أيضا بحياة عصره الذي نشطت فيه الحياة الفكرية واتسعت موجة الثقافة وازدادت تيارات العلوم الناتجة عن التمازج الحضاري وما رافق ذلك كله من ترف مادي وترف عقلي أيضا وهو العصر (الثاني والثالث للهجرة) صوره العديد من الشعراء والأدباء والمؤرخين فكانت كلها عوامل مؤثرة على شخصيته وشعره.

إن ما وصلنا من نتاجه الأدبي في القريض مجرد مقطوعات متفرقة على الأغلب نظمها بمناسبات عدة ولعل المقطوعات التي نظمها في حبيبته (ورد) كانت هي الأغلب مما عرف من شعره سواء رثاء إثر مقتلها - لقناعته حينها بغدرها وخيانتها له - أو قبل ذلك غزلا بها.

ولعل من المفيد الحديث عن قصته مع حبيبته (ورد) باقتضاب ووفق روايات عدة حيث تضاربت الأقوال حولها مما سوف يفيدنا بتتبع شعره كما تدلنا على منحى نفس الشاعر حيال ما سمع عن محبوبته سواء كان قبل علمه ببراءتها أو بعد ذلك.

فمما وصلنا ما أورده صاحب الأغاني بأن مؤامرةً من ابن عمه أودت بمحبوبته فتحدث عن قتلها مع غلامه (بكر) وحرق جثتيهما.

أما (ابن الرشيق في العمدة) فتحدث عن قتله جاريته (ورد) متهماً بها أخاه إلاّ أن الأرجح هو كما ورد في كتاب الأغاني لأبي فرج على قول الكثيرين من متتبعي أخباره ومن الجدير أن نشير لعلاقته ببعض شعراء عصره كما أسلفنا فبما أثر عنه أن علاقته بأبي النواس كانت علاقة عابرة عندما اجتاز النواسي (حمص) قاصداً مصر أما أبو تمام فقد التقاه فتىً وتوسم فيه الأدب والذكاء والقريحة الشعرية فنصحه بالتكسب.. رثاه بعد وفاته متفجعاً ولقاءه بشاعر آل البيت (دعبل الخزاعي) فالمعلومات عن صلته به غير وافية بل ضحلة.

**نماذج من شعره:**

في الغزل: غزله في محبوبته ورد وغزله بغلامه بكرٍهما جل هذا لباب من شعره ثم ما قاله متغزلاً بمن تعجبه. قال في محبوبته (ورد):

وردية الوجنات يخبر اسمها
من ريقها من لا يحيط بخبرها
تسقيك كأس مدامة من كفها
وردية ومدامة من ثغرها

وقال:

لما نظرت إلي عن حدق المها
وبسمت عن متفتح النوارِ
عفرت خدي في الثرى لك طائعا
وعزمت فيك على دخول النار

وفي غلامه بكر:

دعِ البدر يغرب، فأنت لنا بدر
إذا ما تجلى من محاسنكَ الفجرُ
ولو قيل لي قم فادع أحسن من ترى
لصحت بأعلى الصوتِ يا بكرَ يا بكرُ

وقال متغزلاً:

ومزر بالقضيب إذا تثنى
وتياه على القمر التمام
سقاني ثم قبلني وأوما
بطرف سقمه يشفي سقامي
فبت بِهِ خلا الندمان أُسْقى
مداماً في مدامٍ في مدامِ

**في الرثاء:**

قال يرثي أبي تمام الطائي:

فجع القريض بخاتم الشعراء
وغدير روضتها حبيب الطائي
ماتا معاً فتجاوروا في حفرة
وكذاك كانا قبل في الأحياء

أما رثاؤه للإمام الحسين (عليه السلام) فهي قصيدة مشهورة يناح بها ومطلعها:

يا عين لا للقضا ولا الكتب
بكا الرزايا سوى بكا الطرب

وقال يرثي صديقه (جعفر بن علي الهاشمي):

على هذه كانت تدور النوائب
وفي كل جمع للذهاب مذاهبُ
أخ كنت أبكيه دماً وهو نائمٌ
حذاراً وتعمى مقلتي وهو غائبُ

أما رثاؤه لخليلته (ورد): فقد تعددت جوانبه فقال حين قتلها:

ليتني لم أكن لعطفك نلت
وإلى ذلك الوصالِ وصلت
سوف آسى طول الحياة وأبكي
يك على ما فعلتِ لا ما فعلت

ولما علم ببراءتها كثرت بكائياته عليها وتعددت مرثياته لها وفيها يقول:

يا طلعةً طلع الحمام عليها
وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما
روى الهوى شفتيّ من شفتيها

وقال أيضاً:

بأبي نبذتك بالعراء المقفر
وسترت وجهك بالتراب الأعفرِ
لو كنتُ أقدر أن أرى أثر البلى
لتركتُ وجهكِ ضاحياً لم يُقبرِ

**وقال في الخمر:**

قال يصفها إذا مزجت بالماء:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده
بدت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا
عيها مزاجاً فاكتست ثوب عاشق

**في الهجاء:**

لقد خصّ ابن عمه أبى الطيب بغالب هجاءه وفيه يقول:

يا عجباً من أبي (الخبيث) ومن
سروحه في البقائر المدثرة
لو البغال الكمت ارتقت سنداً
فيه لمدت قوائماً خدرة

**في الفخر:**

أما عن فخره بنسبه فقد امتاز بنزعة شعوبية واضحة بقوله في قصيدة له:

إني ببابك لا ودّي يقربني
ولا أبي (شافع عندي) ولا نسبي
إن كان عرفك مذخوراً لذي سبب
فاضمم يديك على حمأ في سببي
أو كنت وافقته يوماً على نسب
فاضمم يديك فإن لست عربي

وهكذا يمضي ديك الجن من باب لآخر من أبواب الشعر ويبدو أنه لم يترك باباً إلاّ وطرقه وأغلب الظن أنه لم يكن مقلاً وفي ضياع غالب شعره ثمة ضرب من ضروب الحظ السيئ فآلمنا اليوم سوء حظه ولعله من المفيد أن نعرج على طرفة لم يذكرها سوى (ابن العميد) في رواية لهً أن أخت غلامه (بكر) صنعت لديك الجنّ أبياتاً دعت عليه فيها لقتله أخيها ومنها:

يا ويح ديك الجن بل تباً له
ماذا تضمن صدره من غدره
قتل الذي يهوى وعمر بعده
يا رب لا تمدد له في عمره

وهكذا مشينا وئيداً مع شاعر يستحق أن يحيى شاعر (مزق الحياة ومزقته الحياة) وذلك على قول أديب عرفناه في حمص هو الأستاذ عبد المعين الملوحي، أما دراسة هذا الشاعر دراسةً أدبيةً والبحث في فنه كما المقارنة بينه وبين غيره من الشعراء فيحتاج العثور على ديوانه (الغائب عنا) وحسبنا الآن أننا قرأناه.